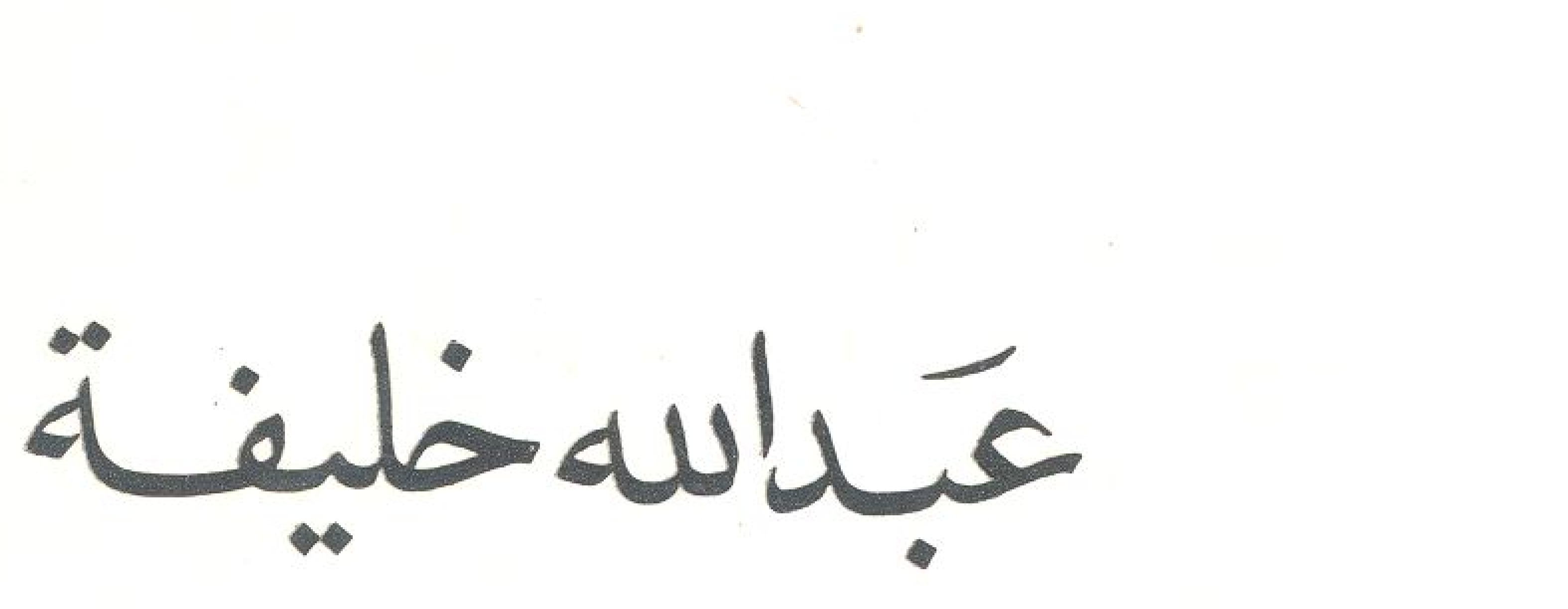

سهرة
مجموعة قصص




عبدالله خليفة


المركز الثقافي العربي


سهرة
مجموعة قصص

* سهرة (مجموعة قصص)
* تأليف: عبد الله خليفة.
* الطبعة الأولى، **1994**.

* توزيع: المركز الثقافي العربي.
* العنوان:

□ بيروت/الحمراء ـ شارع جان دارك ـ بناية المقدسي ـ الطابق الثالث.
• ص.ب/113-5158/• هاتف/343701-352826/• تلكس/NIZAR 23297LE/

□ الدار البيضاء/● 42 الشارع الملكي ـ الأحباس * ص.ب/4006/• هاتف/307651-303339/
● 28 شارع 2 مارس * هاتف/271753 - 276838/ * فاكس/305726/.

عبدالله خليفة



المركز الثقافي العربي

السفر

الحي القديم يتفتح بـدروبه الضيقـة الملتويـة، كالأيـام والأنام، أحجاره تآكلت وتساقطت قشرتها، وتحولت غير أنها ملاجىء للهوام.

بيوت متراكمـة فوق بعضها، تتشاجـر ضلوعها وأبـوابها، قميئـة، كالحشائش الفطرية الذابلة، قماماتها حدائق للذباب، ومسـام دروبها تنزف هياكل وفئران وأشباحاً ومجانين وغرباء.

في أيـامه، كـان هذا الحي بهيجـاً، صلداً، لا يدخله اغـراب، مزدحماً بابنائه الضاحكين، المثرثرين، وفي كـل ركن جماعـة تلعب الورق، أو تغزل حكايات السفر. بيوت فارغة ومهدمة، عشش مليئـة بلغات عجيبة، والكل صامت، وغريب ومريب، والبـرد يعشعش في الـدروب مـع الخفـافيش، والمقهى القـريب مليء بقـوالب الـرجـال الذائبين، ويتصاعد غناء من البلاستك اللزج.

خمسة عشر عـاماً في السجن، لم تبق شيئـاً على حالـه، تاهت دروب الحـارات من قـدميـه، وسـألتـه العصـافيـر عن جنسيتـه، بين الجدران، في برميل الزيت المغلي، كان يحلم بالتوغل هنا، بالإصغاء إلى أصوات الأحجار القديمة، والمطر، وشرب ماء عيون البنات.

أيضاً كان حلمه أن يطير، كالنوارس، بعيداً بعيداً، يخترق جدران البلدان، ينام في مدريد، ويصيد الطيور في ادغال أفريقيـا، ويجري

وراء الكركدن في استراليا، يرى الجليد في سيبيريا... آه كم حلم بالسفر، بالطيران، بالذوبان في عيون المضيفات، بزبدة البيرة في باريس، بالتماثيل المنحنية حباً واحتراماً، بصبايا الشرق الذهبيات الطازجات كالأسماك، بمياه النيل وشقق الدفء والصحو إلى الفجر، بتماسيح الكونغو الكسولة، بشقراوات الشمال وبحيراتهن الساخنة.

خمسة عشر عاماً بين الجدران. لو كان جلده من الإسمنت لانفجر!

خمسة عشر ألف مليون شجار وغناء نازف للحنجرة وليل صامت طويل تئن فيه الوسائد، وبصقات وصفعات من شرطي صخري يفخر طوال الليل بغزواته للنساء، واليدان ذابتا من الفؤوس والصخور والقيود والأبواب الحديد، وتصير الأحلام مسامير، وتسأل النار: هل من مزيد؟

حلم دائماً أن يأتي إلى هنا، يسير في هذا الزقاق، ويتجه إلى البيت العتيق، يفتح الباب، ويدخل الغرفة المقدسة، طوبى لقدميه وهما تطآن تلك البقعة، ويداه تتوجهان إلى الجدار، تحطمان طوبة وأخرى وتنتزعان حقيبة صغيرة مخبأة، تكسران القفل وتطلان في كومة النقود المنتظرة.

جبل من الأثداء، ومدن الهند الصاخبة، وبارات آسيا الواسعة، ويداك تلمسان غيم الأعالي، ونساء يحترقن حباً. وأنت ترقص في كهوفمضيئة، وتحرق رزنامة الأيام الحجرية. تشرب وتشرب حتى تصير نهراً للحب قطراته دواء للسنين.

خمسة عشر عاماً وهذا الكنز مخبأ هنا، ينتظر حنانه، وأوراقه النقدية، يئست من البطالة والظلمة، الآن ستتحول إلى غابات من الأطفال، وطيور مهاجرة أبداً.

منذ أن خرج كان الجوع الضاري نزيل جسده. كل أهله ماتوا أو

اغتربوا، جاء هنا وسكن غرفة رخيصة شاركته فيها فئران سمينة ومومس عجوز.

ثم رأى بيت كنزه، أنه شامخ بأطلاله.

في السجن كان يسكن معه في فراشه. يسأل القادمين بخبث لص عريق «ماذا جرى للحي؟ إنني أحبه.. أريد أن أعرف ماذا حدث لبيوته وطرقه وبشره؟ هل لا زال مقهاه موجوداً؟ والسكة التي بقربه.. ماذا جرى لها»؟

ومرة أعطاه أحدهم سماً وقال أن الحي كله سيهدم، فوصل رأسه إلى السقف، وعاف وجبة سمك نادرة، ورأى فينسيا تغرق، وهو في الصحراء الكبرى جذع يابس يؤشر للنجوم.

تظاهر بالمرض وأرسل إلى المستشفى وطالع صحيفة وسمع أخباراً وعاد بحلمه سليماً.

سيخرج! حتماً سيخرج، في ذلك اليوم من تلك السنة سيطلع، ويقابل الشمس والشوارع، ويضع السماء مظلة فوق رأسه، ويعطي الدروب البكر لقدميه، والصبايا لدفئه، ويجدف في النيل، ويغرق التربة، الحمراء في الأوراس، ويصعد إلى الألب بكرة من الثياب وقلب من الشباب.

وها هو الآن يقترب من بيت المرأة الشهية، حيث كتريه هناك. فور أن خرج تمترس في هذا الزقاق بائعاً مرة، ومصلحاً لدرجات الصبيان مرة، وهكذا صادق ولدها الأكبر. عرف أن أباه مسافر، وأمه، مع أخيه الآخر، وحدهما في البيت العتيق. فغازل أمه وتمنى لأبيه سفراً جميلاً.

وقد فوجىء بقامة المرأة المديدة، وصدرها الواسع، كمرفأ ذي منارتين عاليتين. فمتى يلقي بمرساته ويتلو صلواته؟

تودد إليها كثيراً، وكانت تصده، وتتطلع إلى شكله الهرم، وهيكله

العظمي الطالع تواً من التشحيم، برثاء واستياء. وما كانت تدري، أن في هذا الهيكل الشائب كل مولدات الطاقة القادرة على ارسالها إلى المشترى، بل وأبعد من ذلك إلى الجنة.

وحين يضع رأسه على جدار غرفته، متأملاً انتفاضة مفاجئة لفأر، أو صناعة المومس العجوز لشايها الأسود الكريه، يصرخ:

متى، متى؟ متى يطلع من هذ السجن الدائم، ومن هذا التحديق المستمر للجدران فيه. كرهت شكله، وعافت طلعته.. وكأن كل جلده يصرخ معه، ويقفز إلى الماء، أو إلى جسد طائرة عابرة للحلم.

لكن المرأة الشهية طالعته مرة بود، وقالت «الصبيان صارا يحبانك!» فهتف «ومتى أنت؟» فضحكت وأغلقت الباب.

فكر مراراً أن يقفز الجدار المرتفع، ويتسلل كلص إلى البيت، يتوجه إلى الغرفة الأخرى، ويحطم الطوبتين بضربة واحدة، وينتزع الحقيبة ويلوذ بالفرار.

وعندئذ تنبثق شلالات افريقيا وقطعانها البكر، ويتألق وجه صبية إسبانية في ليل العسل، وتضج بالغناء والورد ساحة في بروكسل. وكأن كل البنايات العتيقة، الصلدة تطل عليه كقرون من النبيذ.

كم استغرق في استكشاف المحيط والطيران إلى القمر؟ ثلاث سنوات.. كان الدم يتفجر فيها من جباه المساجين وينفذ السكر والحشيش وتخنق قطط. وكم ساح في البرازيل بلا نقود وهو يقضي عقوبة في زنزانة صغيرة كأنها حقيبة سفر؟

الآن سيتحقق الحلم.

ها هي المرأة الشهية تدعوه للدخول في الليل البهيم. تضاريسها ناعمة وهو سلحفاة فوق كثبان رملية. جسد من الغيم ورغوة البيرة ولهب الشمس. قطارات تمضي ولا تأتي، غابات تمطر وتحترق، أم تحضنه

وتناغيه وتنزع كل ابر الأيام. كلمات رقيقة وزجاجة دافئة وقصيدة.
حمام ساخن في جزيرة الجبال والثلوج.

يصيح الديك، يخرج ناسياً الكنز حتى الليلة التالية، يرى نفسه عالقاً في أضراس الحي وآسيا في الحلم وهو دجاجة في شواية تدور طوال اليوم. . يصرخ: سأكسر الجدار وانتزع الحقيبة ولن أفكر بالمرأة والأولاد والحليب والحفاظات، وسأندلع في السماء صاروخاً موجهاً إلى الينابيع السعيدة!

وتدعوه المرأة الشهية، ويدهش لهذا التجدد في النار، وتحول الكثبان إلى رمان، وهو يسبح في مياه رقراقة تشتعل حيناً، وتتجمد في أحيان، ويرى البراري والجبال والتماثيل، والكركدن يتقافز في فضاء من القمح المشتعل.

إنه الآن زوج، والمرأة الشهية بها ثمرته، وفي كل صرخة على المشترين يرى قطاراً يقتحم نفقاً، وبالوناً يرحل فارغاً، وليس في اليد نقود، وكل فلس ينتزعه الأولاد والخبز وأكياس القمامة.

يأتي متأخراً فلا يبحث عن الجدار والحقيبة الصغيرة المختفية، وفي بعض الليالي ينهض مذعوراً، وكأن شبحاً صديقاً يناديه، وذات يوم بحث في كل مكان عن قطعته الصلدة المفرغة فما وعت الجدران نداءاته، ولا استجاب الحجر لأمنياته.

وهو قريب من نبعه الليلي المتدفق حرارة معدنية، رأى صورة الزوج السابق، ملقاة على البساط، قربه، ولأول مرة يرى شكله واضحاً. إنه يبتسم وكأنه يهنئه بامتطاء فرسه.

صعد ذلك السؤال الغريب المفاجىء النائم تحت قمامة أيامه، كيف لم يسألها أبداً عن ذلك الأب الغائب المسافر الذي لا يرجع؟

ضمته إليها وقالت «لا أعرف ماذا حدث له؟ ذات يوم رأيته يعثر

على شيء في الجدار المتساقط. صمت يوماً كاملاً. ثم زعم أنه سوف يسافر لزيارة قريب له. بعد أن أغلق الباب وراءه لم أره بعد ذلك أبداً. سمعت مراراً عنه. قيل إنه مرة في الشرق ومرة في الغرب.

لا أدري ماذا جرى له.. لماذا تسأل؟».

سهرة

اشرب هذه الكأس المترعة بالزبد والضياء والألم. اشرب ولا تدفع ولا تجزع. واضحك حتى الصباح واحفر في ذاكرتك هذه الوجوه. وهذه الأجساد الرائعة، احفرها بتقاطيعها الدقيقة، وبنظراتها السكرى المفعمة بالنشوة والشهوة. فلعلها تنسيك عذاب الليالي القادمة، لعلها تسليك في الفراش المهترىء والظلام. فبعد عدة ساعات سيسألك «البارمن»:

ـ الفاتورة يا سيدي!

ستضحك بعمق وتقول:

ـ إنني رجل مفلس وعاطل.. اسأل المدينة كلها. اسأل السماء، البحر والمتشردين اسأل أقسام البوليس، اسأل الأحذية المهترئة على الأرصفة. اسأل الأرغفة الهاربة من الفم!.

وسيقول بأدب جم:

ـ ولكنني مضطر يا سيدي لإخبار الشرطة..

ـ تفضل. افضل مكان يقضيه العاطل زنزانة صغيرة محترمة تتحقق فيها الشروط التالية: الأكل المنتظم، الأصدقاء المرحون، الشاي، السجائر، قطعة صغيرة جداً من الشمس.

كان البار مزدحماً، قطعة من الجنة المؤقتة. الأقدام تحك الأقدام،

والصدور النافرة تتحكم في العيون الشاردة، والمؤخرات لا تتأخر عن الهزات الخفيفة والانحناءات الخاطفة، والثرثـرات تطول وتـطول ولا تقول إلا تعال!

وفي كل لحظة تأتي موجة من الحسناوات. هذه الأجساد الـرقيقة الرهيفة من فصلها، هذه الوجوه البيضاء والوسيمة الناعمة من قبلها؟

(لا تجعلوني أسكر وأموت هنا على هذه الطاولة الصغيرة المتوحدة تعالوا إليّ، ستشربون على حسابي أو عذابي. ستضحكون من النكات الكثيرة التي أحفظها والتي لا تقال إلا همساً. أنت أيتها الشقراء، يا من تشبهين فرساً خُلق من الفضة والزهرة اقتربي مني وأعطيني ضحكة أو كلمة أو صفعة!)

النادل يعطيه زجاجة بعد زجاجة، مستغرباً من قدرته على الشرب السريع المكثف، يقترب منه رجل عجوز ويستأذن في الجلوس قربه.

(هذا هو حظي دائماً. صديق للعجائز. أمي العجوز في البيت لا تكف عن ازعاجي. هل اشتغلت. هل ذهبت إلى الشركـة الورقيـة، جارنا فلان اشتغل براتب كبير، وعلانة صارت سكرتيرة للوزير، وابن حمدان راعي الحمير السابق بنى لنفسه عمارة. أما أبي فمن المسجد إلى الدكان، ولأن الدكان شبه فارغ فهو دائماً نائم. و بين كل غفـوة وغفوة يسألني: هل اشتغلت؟ هذا هو مصيري منادم للعجائز، خاضع لاستجواباتهم الطويلة والثقيلة).

لحسن الحظ اتضح أن العجوز ذو لغة غريبة خاصـة، لا تفهمها سوى قبعته الواسعة، ورغم أنه انحنى واقترب وغمز بعينه فإنه لم يفهم منـه شيئاً. ولكن بـدت حركـة عينيه غـريبة مـزعجة ولأول مـرة يشعر بالانزعاج والغضب في هذا الجو المرح الزاعق الراقص. فلماذا يغمز بجلده المتغضن الذي يشبه نسيج العنكبوت.

(لو أن صديقي الشاعر كان معي لاختلف الأمر. ذاك الشاب الكهل

الساخر من كل شيء، أعجوبة هذه المدينة، يقول: مدينتنا تفاحة البحر. جدفنا نحوها، وغصنا إليها فأعطتنا سمك القرش. يشرب ويثرثر ويناوش النساء في الحارة، ويغرف منهن الشعر، وتلمع عيناه بالسعادة وهو في غرفته الوحيدة بين أكداس الكتب والورق والثياب المعلقة كالرجال المشنوقين. يظهر في النهار ويختفي في الليل، تجده شهوراً طويلة ثم يختفي سنين. غرفته محكمة الإغلاق أحياناً، وأحياناً أخرى فارغة ليس فيها سوى وريقات ممزقة يلعب بها الصغار. وفي آخر مرة ظهر فيها لم يجد غرفة ووجد عمارة كبيرة مكانها. أقول له: لماذا تهلك نفسك ألا ترى شعرك الأبيض أين أولادك وزوجتك وأسهمك وأحذيتك القوية وسيارتك الفارهة المكيفة وقمصانك النايلون، أفي كل مرة تقول لي: قصيدة، قصيدة! أهي امرأتك؟ هل تضاجعها ليلاً؟ هل تتأوه من اللذة؟ هل تقول: لم أشبع، قبلني، قبلني؟ ويضحك باكياً. هنا تتشقق اللغة، الحروف تغدو أطفالاً وأفراساً، والكلمات جزراً ونخيلاً مقطوعاً ومسامير في اليد وعصافير في القفص!

لو كان هنا لسخرنا معاً من هذا العجوز الذي يتأهب للرحيل وبلا خليل!)

نهض العجوز وتركه وحيداً للفوضى الجميلة، قمصان بلون الفراشات، فساتين هي حدائق وحرائق متنقلة. البشرة ديناميت لمن لا يذوق. ضحكات الفتيات صهيل أفراس مدربة على الوثب والقتل.

تطلع إلى المليونير الشاب يقود زهرتين من البار إلى سيارته! يداه على الخصور وعيناه توزعان الابتسامات بالعدل والقسطاس. وانظر إلى وكيل الوزارة العجوز الأشيب يحصل على فاتنة هي برق ورعد ومياه. هل سيكفي الليل؟ ألن يتأخر عن الدوام وربما العمر؟

أرفع الكأس وأشرب في صحة الأسرة السعيدة! في صحة الحزن الوطني. في صحة العاهرات القادمات من كل فج عميق. في صحة

القـواد والقوادين. في صحـة الأخوة العـرب القـادمين إلى الأخـوات العربيات!

(أنظر! يا إلهي ثلاث فتيات مثيرات للفوضى والهلع. حـركاتهن رقص ودعوة مستعجلة للحب. تعالين، هنا الوحيد المحزون. ستشربن إلى الصباح. ولكن المشكلة بعدها أين سأذهب بكن؟ ليس لدي يخت ولا قصر ولا ڤلل مفروشة وفارغة ولا مرسيدس بلون فستان الفتاة التي معي. لدي غرفة وحيدة فيها فراش وحيد تعب أضنته أحلامي وآلامي. ولديّ كرسيين مهزوزين،حاولت مرة أن أنتحر على واحد منهما فسقط بي وأفشل محاولتي. وأحسست به يضحك علي ويقول: عش كما نعيش نحن في هذا البيت المقفر والحجرة الخربة!

لقد ذهبن إلى غيري. جلسن مع رجلين يلبسان الثيـاب العربيـة الرائعة، ولديهما كرشان يصارعان الطاولة الفقيرة بضراوة. وعلى سطح الطاولة هناك مظاهرة حاشدة من زجاجات الغرب والشرق وأنواع المزة. هنيئاً لكما هذا النصر!).

تطلع يمنة ويسرة لكي يتحدث مـع أحد. فـرأى الحشد الهـائل مشغولاً بالثرثرة مـع نفسه، الأيـدي الخشنة تتلمس الجلود النـاعمة، والآذان البيضاء تصغي للأفواه الواسعة السمراء ذات الأسنان الصفراء، وثمة كركرة وكأن ساحراً ما يدغـدغ الجمع فيضحـك ويتأوه ويشـرب ويمضغ ويشير إلى الساعة وينتشيْ بالرغوة والموعد المنتظر ويعد النقود ويوقع الشيكات المفتوحة ويهتف في سبيل عينيك أيها الغزال الأبيض!

(أذكر الشاعر الذي جاء إليّ في تلك الظهيرة. دق الباب بقـوة، قلت: ربما حدثت كارثة كالعادة.. فتحت فإذا به يقول: هل لـديك ورق أبيض؟ قلت: تعرف أنني لا أحتفظ به حتى لا أتهم بأي تهمة، صرخ: لا تمزح، أعطني ورقاً، وإذا كان لديك شاي وسجائر وسندويش جبن فلا بأس!.. أعطيته ورقاً وسرقت من مطبخنا الشاي والخبز.

في ذلك الوقت كان لديه غرفة، والآن لا أحد يعرف. قبل فترة وجيزة كان ينتقل في بيوت الأصدقاء وعلى قوارب الصيادين النائمة على الشطآن. قلت دائماً: سيتحول إلى مجنون. ولكن ظني خاب، فها هو يبكي ويضحك، ويقرأ الاشعار ويتجرأ على حب امرأة. في الفترة الأخيرة اختفى. كانت أمي تكرهه وتقول: لم يخربك إلا هذا الملعون! أيوجد أحد يقبل أن يكون متشرداً؟ وحين اختفى راحت تسأل الناس في الأزقة، بل وذهبت إلى البحر تسأل الصيادين، وحين لم تعثر على شيء بكت في غرفتي وصاحت: ألا تبحث عن صديقك؟!).

ها هي امرأة تتقدم إليك. ها هو حظك المعتق يتفتق ورداً ورقياً ذاويا. ها هي العجوز تسحب المقعد بخجل العذراوات وتجلس وهي تروض فستانها عن اثارة القلاقل. تواضع، وهدوء وثقة.

تشرب شيئاً من الويسكي وتدخن سيجارة. إنها ليست عجوزاً تماماً. جلدها كأنه جلد مدبوغ تواً. ثنياته وتعرجاته كتضاريس أرض جبلية. الخواتم الذهبية تملأ يدها، كمصابيح في مقبرة. وثمة عقد ماسي يتلألأ فوق صدرها.

نظراتها رغبة جامحة لم تروضها السنون ولا أشبعتها الأيام. لهفة على ماضٍ وخوف من القادم. رجاء لهدنة بين الموت والحياة، بين المقبرة والزهرة.

تتطلع بدعوة محمومة، تهز رأسها نحو الخارج، وتتشبث بالقلادة الماسية وتقول: قم، قم.

جاء حظك أخيراً. جاءك التابوت وأنت فتى تضج بالحياة. ولكن عليك أن تستجيب لدعوتها فلماذا تقبل الزنزانة الضيقة وأنفاس أصحاب الإبر والمساحيق والسطو؟ لماذا الخبز الجاف في الصباح والعيش الأبيض اليابس في الظهر والشاي الأسود الحامض في المساء؟ أتريد المرأة قبلة؟ أعطها إياها. رقدة في الهزيع الأخير من الليل؟ لا تبخل

بها. فأنت لن تدري أين أصابعك ولن تعرف حديد السرير من جلدها!

تبتسم لها. وأخيراً تنطق بكلمة مع أحد. وتقول: «نعم، معك أيتها الطحالب والأسنان الصناعية.. ما دمت ستدفعين الفاتورة كلها، معك إلى بوابة الفندق ربما، أو بوابة بيتك ولكن فيما بعد لا يا سيدتي!»

تكلمت هي أيضاً. صوتها كصوت آلة تقطع جيداً، شيء يذكره بالسفن القديمة الخربة والماء يفتقها قليلاً قليلاً، أو بالرحى وهي تطحن.

تقترب وتهمس في أذنها.

ـ أنا معجب بكل هذه الأناقة والجمال!

تبتسم المرأة بالفخر. تتطلع أنت إلى الآخرين فترى غزلاناً جديدة تمرح. فتاة طويلة ناعمة ذات وجه بريء كاعتراف زهرة بحب، تلتفت إليك وتبتسم. آه، ها قد حصلت على الإعجاب أنت أيضاً، ربما كان سخرية أو غزلاً. تغمز لها فتصد عنك باستياء. شنقت الفرحة!

قالت العجوز:

ـ أتحب أن تأكل؟

ـ إنني لا أريد إلا أن آكلك أنتِ!

وأضفت بالعربية «حتى أخلص العالم من شرك!».

دفعت المرأة الحساب وهي مندهشة لعدد الزجاجات التي أفرغها في جوفه ثم قادته إلى الخارج، واحتواهما المصعد لوحدهما. وكانت تنتظر قبلة حارقة مجنونة لكنه احترق من الرائحة وتمنى الهواء الطلق.

كان المطعم على سطح الفندق الضخم. تعريشة من الضوء والخيام والطاولات الكثيرة الأنيقة المزدحمة بالأكل والأواني الغريبة والزجاجات والكؤوس البراقة. وكانت رائحة الشواء تسيل لعاب النجوم

الصغيرة المزروعة بكثرة في مظلة السماء كالفقراء المحتشدين في الظلام، كالأيدي الممدودة في السوق والحارات والزحام!

قدموا لهما قائمة الطعام فلم يفهم شيئاً ولكنه وضع اصبعه على خط منها وهو يبتسم. التفت إلى المدينة فرأى لؤلؤاً منثوراً وأضواء ملونة. اشتعلت البنايات والشوارع وجاءت ضجة الليل خافتة مفعمة بالندى كقطة ناعمة الملمس. المدينة والسماء والبحر تسبح في الضوء.

أسكرْ مع هذه الحلوة وتمتع بالطعام اللذيذ. العجوز تسألك: ما هي أعمالك؟

(اسألي يا سيدتي البنطلون المرقع، دكان أبي الفارغ، سنوات التشرد الخمس، بشرتك التي أشعلها النفط، حارتنا المهجورة، أمي المجنونة وأبي الذي هدهدته التعاويذ!

لا أعرف لماذا صلبوني في الظهيرة. هل لأنني صديق المغضوب عليه: شاعر الحارة المختفي؟ ذلك الإبليس الذي لا يهدأ، والذي ربما الآن يطفح على مياه الخليج مع الزيت والدم؟

هيا انهضي أيتها الحلوة لأمارس عملي الجديد. عاشق للخريف والصقيع. الحاضرون يتطلعون إلينا بدهشة. موتوا بغيظكم أيها السادة. هل رأيتم أجمل من هذا الوجه؟

إنني أقبلها أمام الملأ، أنا فارسها الجديد، اضحكوا!).

يحضنها بيده ويهتز قرب المصعد، ويرى المدينة تدور، المصابيح تعانق النجوم والغيوم تهبط فوق المطعم، وكل شيء غدا ناعماً وساماً.

ها أنت إلى السيارة وتترنح على المقعد وتندفع الشوارع في وجهك وتسمع المرأة تفح:

ـ هل أنت هنا يا حبيبي؟

(أنا لست هنا، أنتم هنا، ها أنت تقودينني إلى قصرك يا أميرة أحلامي، يا كابوسي، يأجوج ومأجوج أنت، خذيني برفق ودعيني أرى قصرك الكبير. إنه يكفي لحارتنا كلها يا سيدتي. أعطونا جناحاً!)

بركة وأشجار وممر مفروش ومغطى بالياسمين، وهي تمسك بذراعك وكأنها خائفة أن تفر في آخر لحظة ثم تدخلك غرفة نوم واسعة فتجلس على السرير وأنت تمسك رأسك. بك دوار وغثيان.

(المرأة تتعرى. ها هو الهيكل العظمي يرقص. الأفضل أن تطفيء الأنوار لا، لا أحب أن أرى عاري أمامي!). يلمس الجلد المتغضن، والنهد الميت ويدخل في نفق مظلم، يرى أشباحاً تتطلع في وجهه، ويسمع صديقه الشاعر يئن وكأنه يتلقى ضربة قوية في صدره، يود أن يمزق جلد العجوز، لكن النفق طويل ومتعب، ومرة أخرى يتأوه الشاعر وهو يتلقى طعنة سكين في خاصرته، الشعر والدم والتأوهات تذوب معاً وتشكل ناراً يحس بلسعها في عينيه، يود أن يصرخ في وجه المرأة لكنه يمضي، يحس بنفسه يغوص في الوحل يحس بمذاقه كما لو كان حذاء يعبر مستنقعاً.

العجوز فرحة وسعيدة، عصارة الشرق تنتقل إلى جلدها المتيبس، تتوهج قليلاً، تعض صدره بأسنانها الصناعية، تطلب المزيد والمزيد، لكنه تجمد، شعر بفداحة الثمن، بصرخات الشاعر وهو يحتضر والأحذية فوق وجهه، بصراخ الحارة وبكائها، ولكنه لا بد أن يعطي عصارته للجسد المتجمد، لا بد أن يكمل الرحلة التي طالت، وهو يحس أنه يقتات بنشارة الخشب ويشرب دموعه.

فتح عينيه وإذا بالضوء الساطع يملأ الغرفة، وإذا عصافير قرب النافذة وهو عار لكن مغطى بالدثار. أحس كأنه فتاة تفقد عذريتها مع كلب. به رغبة شديدة في الهرب.

جلس فدهشت العصافير ثم طارت خجلة. الضوء يدل على تأخر

الوقت. بحث عن ساعة فوجد أنها الثانية بعد الظهر. كم إمتصته العجوز!

تروى في الحارة قصص غريبة عن الذين ينامون مع العجائز. أحدهم مات بعد أسبوع وآخر جن وثالث غرق في البحر!

يخيل إليه أن الشاعر لم يمت. موجود في مكان ما. مختف عن الأنظار. يبعث بقصائده إلى محبيه. ذات مرة اختفى ثلاث سنين كاملة، وكانت تصله منه الرسائل والقصائد، فيكتبها بخط أنيق ويرسلها إلى الجرائد التي لا تنشرها. كانت انفاسه تتجول في الأزقة. وتظهر صورته هنا وهناك. وفي ليلة قرأ لأمه قصيدة فحفظتها وبكت. يود أن يبكي. يحس بكآبة خانقة. لا فائدة من النور والعصافير والشوارع والزهور.

جاءت العجوز مبتسمة، متألقة. سألها:

ـ ماذا يعمل زوجك؟

ـ إنه مهندس. ها قد جاء الآن ويحسن بك أن تذهب وتأتي في الليل.

ـ هل يوجد باب خلفي؟

ـ لا، اخرج من الباب الذي جئتنا منه.

ثم وضعت في يده ثلاثين ديناراً. اندفع بقوة ورأى وجهه ممزقاً في مياه البركة الزرقاء. ثلاثون ديناراً؟ عندما كان الشاعر ينشر قصيدة كانوا يعطونه خمسة دنانير. لماذا لم يترك الشعر ويعمل مثله؟

سمع صوتاً خلفه، التفت فوجد الرجل العجوز يناديه فأسرع إلى البوابة واندفع في الشارع، كانت الشمس قد استولت على السماء، أبعدت النسمات الصيفية الرقيقة وأوقدت الأرض فتصاعد وهج وحشي من أسفلت الشارع، أحاطت به دوائر من اللهب والعرق. سمع صوتاً خلفه أيضاً، أبصر العجوز يطارده بسيارته، راح يركض على الرصيف المشتعل، يود أن ينتهي من كل هذا الألم، من هذا الزحف على الرمل

المحترق، تساءل: هل سيطلق عليه الرجل رصاصة صامتة في ظهره؟

(أود أن أموت حقاً، ولكن على طريقتي الخاصة!).

اقتربت منه السيارة. توقف له. رأى العجوز يبتسم ويغمز بعينيه أيضاً!

بصق عليه واندفع يجري إلى بيته. تناول حبلاً ودخل غرفته. تحسس الكرسي فوجده قوياً وعابساً. عمل مشنقة وسمع أمه تناديه وتسأله: أين كان البارحة. وهل بات في أحد مراكز الشرطة.

أسرع بتعليق حبل المشنقة في المروحة. وجده قوياً وثابتاً ويصلح تماماً خاتمة لحياته. وضع المشنقة في رقبته، وما عليه الآن إلا أن يدفع الكرسي ويتأرجح في الهواء. البارحة كان أقصى حلمه أن يدخل زنزانة..!

أليست الحياة جميلة؟ أليس غداء الوالدة لذيذاً؟ يجب أن ينسى العجوز ودنانيرها. أحكم الحبل حول رقبته وسمع خطوات أمه تقترب. سمعها تقول:

ـ أين أنت؟ ألا يجب أن تذهب لتهنئة صديقك الملعون بسلامة الوصول؟

قبضة تراب

كانت زرقة السماء مشوبة بنور فضي شفاف. وثمة عصافير تتشاجر في دغل مهجور. كان الطريق إلى المدرسة ترابياً، متعرجاً، بين مستنقعات آسنة، من بقايا المطر، وأكوام أنقاض.

حملت الريح غناء بلبلٍ حزين. وبدا المرتفع بعيداً وقاسياً. وكأن الهضبة التي صعدها ركضاً استحالت إلى جبل شاهق. رمق الحاج فاضل سور المدرسة المرتفع، وأسلاكه الشائكة الصدئة.

سعل وتأوه، وجلس على التراب، ورمق الخضرة البعيدة الكالحة والمتوارية، والسماء العميقة الزرقة، بدت بيوت القرية المتراصة كمعسكر للاجئين.

اقتربت يده من التراب، تغلغلت أصابعه في مسامه. كان بارداً وناعماً وحنوناً.

توكأ على غصن صلب ونهض مرة أخرى.

دخل المدرسة الهادئة، كانت الجدران القديمة مليئة برسوم لم يرها من قبل، وكانت التلميذات محتشدات في الصفوف الصغيرة.

قادته الفراشة إلى مكتب المديرة. جلس على كرسي خارج الغرفة، وهي بجانبه. سمع صوت آلة موسيقية في نهاية الممر، ضجت

التلميذات بغناء غريب. شعر برجفة.

أدخلته الفراشة على المديرة. أبصر، في الغرفة المضيئة، امرأة شابة، كانت منحنية فوق ورقة كبيرة، وتضع إشارات بقلم. كانت حاسرة الرأس، جميلة الوجه.

تنحنح وألقى التحية. لم ترفع رأسها، وسألت:

ـ ماذا تريد؟

كان السؤال حاداً ومباغتاً.

لم يجبها. تطلع إلى الغرفة المليئة بالكؤوس والخرائط والصور والكتب وبعض الآلات الموسيقية.

سألت، وهي ترفع رأسها:

ـ ماذا تريد؟

ثم استدركت:

ـ تفضل، تفضل!

واصلت وضع الخطوط فوق الورقة، وبدا كأنها تنتظر طلب العجوز بإلحاح شديد.

ـ هل ثمة مشكلة؟

ـ إذا كنت مشغولة يمكنني أن أحضر مرة أخرى؟

قالها العجوز بهدوء شديد أوقف صرير القلم. وكان يعلم أنه لا يستطيع أن يصعد الهضبة ثانية.

ـ ماذا لديك؟ قل إنني أصغي إليك؟ هل لديك بنات هنا؟ هل عملت إحداهن مشكلة؟

كان معها مخطط للمسرح الذي تعتزم إقامته. رغم انسحاب

تلميذات كثيرات ومدرسات، إلا أنها أصرت على الاستمرار. والآن هذا العجوز أيضاً!

ـ إذا كنت مشغولة يمكنني أن. . أحضر مرة أخرى؟

أبعدت المخطط باستياء. . وعقدت ذراعيها فوق صدرها. وقالت بخفوت:

ـ إنني. . أصغي. . إليك!

ـ أنت المديرة الجديدة. . أليس كذلك؟

ـ ماذا تريد؟! ترى إنني مشغولة!

سعل بشدة وبدا كأن صدره يتمزق.

قال:

ـ ثمة ضجة ما في القرية. كنت في مجلس الحاج عمران، وتحدثنا طويلاً عن المدرسة. كان هناك العديد من الشبان الغاضبين، على هذا الغناء المتصاعد في المدرسة. . وهذه الآلات. كانوا يريدون الاندفاع إلى الصفوف وتحطيم كل شيء.

وراح يسعل ثانية. تطلعت إليه برعب، وغضب، ووضعت أصابعها على الهاتف. ماذا يجري هنا؟ جاءت بحب، وعملت إلى المساء. تمضي إلى بيتها واهنة. وأبوها يتطلع إليها باستياء. مرة تأخرت حتى الليل، فجاءتها حصاة!

يقول:

ـ لم ادعهم يصرخون. جئت إلى هنا. منذ سنوات طويلة لم أصعد إلى الهضبة. كنت اندفع فوقها وأنا شاب. . أركب الحمار. . ونجري معاً. . والحصى يتطاير. . تحتنا. . لم تكن الهضبة هكذا. . صارت جرداء. . جرداء. . ليس ثمة سوى. . الأدغال المهجورة. . والقطط

الشرسة.. كانت هذه الأرض.. أيتها المديرة.. خضراء.. مليئة بالأشجار والينابيع.

الآن.. كل البساتين.. التي كانت.. غدت أرضاً.. قاحلة.. لم يبق سوى بضع بساتين صارت فللاً يسكنها غرباء.. لو كنت.. تقفين فوق.. سطح المدرسة.. لرأيت القرية.. بيوتاً كثيرة متزاحمة.. وتلك البساتين القليلة تحوطها من الشرق.. إلى الغرب.

كان يتحدث بصوت خافت، متقطع، عميق، وكانت يده التي يضعها برفق، على المكتب، تبدو صلبة معروقة، كأرض محروثة.

ولأول مرة يجعلها صوته تسترخي.. ويفلت القلم من أصابعها.. وتفكر لماذا يتكلم هكذا ويجيء إليّ وهو يكاد يحتضر؟! أحست الآن بقوة المكان. ليست هي في مدينتها الجامعية، ولا في رحلة. وغريب أنها لم تذهب أبداً إلى القرية، ولم تصعد إلى سطح المدرسة، حيث تجلس بضع مدرسات في غرفتهن.

لامس ظهرها جلد الكرسي. وأصغت باهتمام إلى ما يقوله العجوز:

ـ كنت هنا.. قبلك.. لدي كوخ.. لتحفيظ القرآن.. وكم ألهبت الأيدي.. والأرجل بعصاي.. اللاسعة! وكم هاجمت.. الرجال و.. النساء.. بسياط كلماتي!.. ثم سافرت.. إلى الدنيا.. ورأيت.. وشربت.. وغنيت.. وقامرت.. وتبت.. وتزهدت.. وحاربت.. ورأيت أكداساً من البشر يلقون في الحفر. وجئت.. ورحلت.. وتزوجت ثلاث مرات.. ونصف القرية أولادي.. وأحفادي.. كانت هذه البرية.. الجرداء.. كلها حدائق لنا.. والآن.. لا مكان.. يأويني.. غير مجلس.. ممتلىء بالرجال.. دائماً..

توقف قليلاً.. بدت المديرة تحس بالألم والقلق. عندما عُينت في القرية، أصابتها بهجة شديدة. واندفعت بسيارتها عبر الشوارع

المزدحمة والبساتين، وصاحت: سأكون شعلة من الضوء والعلم! والآن هذا الرجل الأشيب، وكلماته المتجرجرة كأنها رصاصات توجه إلى حلمها. كيف ابدأ من قبل الصفر؟

رمقها العجوز لحظة، وواصل حديثه:

ـ البارحة.. هتف الشباب.. وصرخوا.. أرادوا.. أن يحملوا.. النار لحرق المدرسة!.. هدأتهم.. في الليل.. لا نستطيع.. أن نىام.. موسيقى الغرباء.. تضج في.. الظلام والصمت.. البارحة.. بعد أن خرجت.. من مجلس الحاج.. عمران.. سرت نحو بستاني القديم. آه! أتذكر هذا.. المكان.. هذه أرضي وأرض أبي.. طالما حرثت وحفرت وسقيت.. وتسلقت الأشجار.. في تلك البقعة.. التي صارت.. بركة.. الآن.. سقطت أمي.. نزل أبي من فوق النخلة.. على أثر صراخنا.. كنا وأخوتي.. نلهو في الجدول.. وإذا أمي تسقط.. وهي تحمل.. صرة الأكل.. حملها أبي.. إلى الكوخ.. حيث ماتت هناك.. على أرض الكوخ كانوا.. يرقصون.. وكانت تنطلق.. موسيقى زاعقة.. عنيفة.. منذ زمن بعيد.. حاولت أن.. أجمع.. نقوداً.. لشراء.. هذه الأرض.. ولكني.. لم.. أستطع.. سا.. فرت.. تغر.. بت لكنـ.. ني.. كنت.. أود.. أن تكون.. هذه.. القرية.. جنة.. علمتهم.. حفظتهم.. القرآن.. ولكن كأن.. شيئاً.. لم يكن.. هذا.. البستان.. كان ملك.. أبي.. وعند.. ما.. طردو.. ااه! تعلمت.. كل شيء.. من أجل.. أن.. أجمع ثمنه.. ولكن.. ها هو.. العمر.. يمضي.. وليس.. لي.. مكان.. أنام.. فيه!.

صمت برهة.. وجدتها طويلة.. إنه هادىء في حزنه، ولكن عينيه الصغيرتين المحاطتين بأخاديد وظلمات تتألق فيهما شرارة من فرح غامض.

تطلعت إلى العجوز مباشرة، ورأته يحدق فيها بود غريب، وسمعته يدندن.

كان يتذكر حينئذ مجلسه في ذلك الكازينو، والمغني يصدح، وكان الجبل شاهقاً، والمدينة تحته مليئة بالأضواء، وكأنها در منثور. رفع الكأس في صحة الجبل والغيم والغناء الشجي، وصفق وغنى ونزل، والضباب يشعشع في الفجر البهي.

كأنه قال شيئاً ولم تسمعه، وخاطب امرأة مبهمة. نهض، حياها بخفوت، ورأت اليد الأخرى قابضة على شيء ما. سار في الممر ببطء. كانت الفسحة قد بدأت، وجسد المدرسة الحي يضج بالضحك والصراخ. أحاطت به ثلة من الصغيرات. رأت، من النافذة، كأن قبضته تسترخي فجأة، وتتساقط غيمة، أو حفنة من تراب.

الطوفان

لن يأتي أحد. هؤلاء الغـرباء سيعبـرون المحيط لوحـدهم. كل الخيوط التي ألقيتها في المياه كي تصطاد شيئاً جاءتك فارغة. اجترْ هذه الوحدة المميتة وضاجع الريح الساخنة. لم يعد ثمة شيء تقدر أن تفعله أيها الكهل الموغل في العمر. لا يزال في الدورق شيء من النبيذ، إذن اشـربْ ودعْ هذا الليـل ينجلي فمهما طـال البعد، وعـربدت الـرياح المجنونة ستجد نفسك مرة أخرى وراء شراع سفينة تحدق في صحراء اليم.

كل هذه الجزر البازغـة في الماء ربيتهـا كأولادك، وهـذه الطرق الطالعة كالوديان الخضراء نادمتها ولم تسكرك. حيتان صادقتها، غيوم ودعتها، عواصف مزمجرة قلقلت الجبال خرجت من عباءتك. .

اقرع كؤوس الأشباح، ها قد مات العمر هنا، بعثرته بين القراطيس التي لم يقرأها أحد، والتحديق في النجوم اللامبالية، وعدم النوم وراء الدفة، إقبض باصابعك خيوط نهار واحد أن تقدر، حتى البحر يكبر، ولم يعد صبياً وديعاً كما كان، اشتعل رأسه زبداً، واستل من خناجره ناراً وبراكين جديدة.

دغدغ الرأس بالكأس، ودع أشبـاح الغواني يهـدهدن وحـدتك. علك تنام. علك تغرف اللذة وتنتشي. فيزهر الشباب على أطرافك.

منذ أن ألقت السفينة مراسيها على الشاطىء وأنت مبحر في العاصفة. صرخت في نجم: أنظر أنا اقترب من الموت ولم أفعل شيئاً طوال عمري؟

تطلع إليك بود:
- ماذا تقول أيها الشيخ؟ كل هذه الأعمال الشامخة ولم تفعل شيئاً؟

- أية أعمال شامخة؟!

- هذه الكتب التي صارت دليل كل ربان، صرت الأسد الأخير في قارات الماء!

- كتب، ورق، مجرد ورق، قد يحترق، قد يغرق، قد لا يأبه به أحد. أنا، أنا ماذا قدمت لنفسي، عشة في جلفار، وامرأة أراها في كل خمس سنين مرة وأولاد كبروا بدون علمي..!

- ماذا تريد وأنت ما أنت عليه من العمر؟

- ماذا بي؟ لا تزال القوة لم تقدح مني. آلاف الشرارات كامنة في خلاياي، وكل شرارة لمائة حريق. دعني أسبح في بحر الحواس، دعني أرقص، أعزف، أقبل مليون امرأة على هذا الساحل. بعد عام أو أكثر ستضعوني في القبر كتلة من الحجر. ماذا تريدون أكثر مما أعطيت؟ فرشت لكم المحيط سريراً من الخرائط، اخرجت الوحوش والأشباح من الجزر ورصفت طرقكم بالنجوم، كل بحار يتوغل في الماء يتمتم بأسمي كأنني تعويذة للخير، ملكت المحيط بلا تاج، واضخم كتاب لي لا يستبدل بكأس في أية حانة رخيصة في هذا الساحل المتواطىء مع العواصف والجوع.. ماذا تريدون أكثر؟!

صمت نجم. لم تتراجع:

- سأبيع كل هذا القماش والحديد والأصباغ لتغدو أياماً رائعة.

- ولكن علينا أن نرجع بعد شهر!

ـ سنعود حتماً مع الرياح.

وانطلقتَ. وضعتَ أشعارك جانباً واسترجعت أبا نواس. فلتعانقك الحانات والصدور الواسعة ولتعبق جوانبك بالبخور والسرور. يا إلهي، ما أطيب لحم السمراوات كأنك تتوغل في ليل بهيم لتشعشع الأنوار في آخره. يرشرش ماء الشباب على رأسك، تدخل عريساً وتخرج مولوداً. ترقص في الغابات وترقب الأنهار وأنت تحتسي عصارة الجذور فتخلد في الأغصان والأوراق.

ثم تخلو جيوبك من أي شيء تدعو نجماً:

ـ انتهت النقود ماذا سنفعل؟

ـ نرجع للبلد الذي غادرناه منذ سنين.

ـ البلد!؟ أوه، إلى تلك السفن والخيام والصخور والصقور. ثم الامتداد الأصفر للرمل..!

انظر هنا كل شيء يضج بالحياة.. حانات، نساء شبه عاريات، غابات بكر، دعني أتوغل في هذه السعادة الحسية قبل أن يتوارى العمر.

ـ ولكن ستتحول هنا إلى شحاذين؟ نحن لا نملك شيئاً سوى السفينة..

ـ السفينة؟ نعم. نعم.. سوف أبيعها.

ـ لا، لا تستطيع ذلك. ليست لك وحدك. معك بحارة، أنا معك.. هل ستدعنا نهيم على هذا الساحل الطويل بلا عمل؟!

ـ ستكون معي يا نجم كظلي. لكن سأصرف البحارة. يشق عليّ ذلك. لكن دعهم يبحثون عن عمل آخر.

ـ لقد أصبحت مجنوناً!

نظر إليك البحارة باستغراب ورثاء وذابوا في المدن. أما أنت فقد عبدت امرأة جميلة في بيت قرب الغابة. نفضت كهولتك وجيوبك. خرجت صفر اليدين وازهار كثيرة تنبت فوق صدرك. أسجد للضوء المنبعث من العيون، للشفاة القرمزية، والنبيذ وجوز الهند والفراشات والأطفال يضجون بالضحكات..

تقول وأنت تتجلى:

ـ يخيل إليّ أنني في ملكوت النعيم. في قمة الضياء الباهرة. لو أن الزمن يكون هكذا، يتوقف فلا يمتلىء الجلد بالتجاعيد، ولا الشعر بالبياض، ولا العين بالإظلام ولا البلدان بالغزاة، ونتحول إلى فتيان ونشرب ونرقص ونغني ونعمل.. لكان العمر جديراً بأن يعاش.. يعترض نجم:

ـ ولكن ماذا نفعل الآن؟ علينا أن نتدبر لقمة الغد..

ـ آه، لا تخف خبز وبعض ثمار غابة وطيور تقع في فخ تعيشك سنوات حافلة. الأروع أن تشعر أنك حر. بعيد عن جبال الأمواج الغاضبة والحبال التي تحفر اليد والشمس الحارقة والعرق والدوار وجلود الرجال التي لا تتغير والزرقة التي لا تنتهي والليل الفاحم المدلهم والوحوش التي تنتفض في الموج وأعماقك البرية الموحشة.

ـ سمعت أن ثمة سفناً غريبة وصلت الشاطىء.

ـ وماذا تريد؟

ـ تبغي الوصول إلى الساحل الهندي. إنهم كفار قادمون من الغرب. كادوا يحرقون إحدى المدن التي رفضت دخولهم. لديهم غربان رهيبة.

نهضت. سرت في الغرفة. فتحت النافذة. ورأيت الليل الأفريقي ينهض من فوق المدينة. تتنفس الأكواخ هواء منعشاً وتشرب ضواء

خافتاً. تصيح الديكة فرحة بالفجر وتبدأ غابات الطيور بالغناء والعمل.

جلستَ محدقاً فيه:

ـ تلك فرصتنا!

ـ ماذا تقول؟ ماذا تقصد؟

ـ أن نعبر إلى الساحل الآخر ونحرثه لهواً وفرحاً.

ـ كيف، لقد بعت السفينة. هل تبغي أن نتحوْل إلى بحارة عند ربابنة آخرين؟

ـ لا، بل عند هؤلاء الغرباء سنقدم لهم خدمة يسيرة فنحيا بقية العمر في متعة خالدة.

قام نجم مفزوعاً:

ـ أيها الكهل المخرف. ماذا حدث لك؟ كلما قلت انك استعدت شيئاً من صوابك ازددت في العماء. إنك تغوص في الوحل وتتصور أنك طائر حر في السماء!

غضبتَ أنت الآخر:

ـ ماذا بك هل صرت تلميذاً لك؟ هل تنسى ما كنت عليه وأما أردته مني!

ـ لا، لم أنس، أذكر أنني جئت إليك وأنت في «بومك» الجبار ودهشت من كثرة بحارتك ومجلسك المفروش بجلود الحيوانات والمظلل بسيوف سمك القرش والمضمخ بالعطور، فتصورت أنني في حضرة ملك عظيم فانحنيت فضحكت أنت وقلت: تعال أيها الولد، ماذا تبغي من سلطان المياه؟

ـ فقلت أنت أنك لا تريد سوى أن تكون تلميذاً مطيعاً لرجل اطاعته تيارات المحيط.

ـ وكم صبرت حينذاك كي أفهمك! انعزلت اشهراً طويلة وأنت تنادم قراطيس تكاد أن تغطيك. صار الحبر كالمحيط. ثم اندفعت بالسفينة العملاقة في جوف المياه ورحت تتوقف هنا وهناك. وتكتب، وتلقي خيوطاً في البحر، وتراقب نجوماً في السماء بدء الليل وعند الفجر، تمشي بمحاذاة السواحل ثم تعانق جزراً قصية في أدغال المحيط وعند منابع الثلوج.. يا إلهي، كم تعلمت منك، وصار البحر ككف يدي، اقرأ خطوطه وأتنبأ بمساره.. استأنست الوحش وترامت انصاله في جسدك جروحاً وشيباً ويأساً.. ثم إذا بك تلتفت إلى جسد الشباب الهارب منك فتغدو طفلاً يضج بالصياح وألعاب الطفولة تذوب في بئر الكهولة العميقة..

ـ أتذكر كيف كنت تفتخ فمك عندما كنت أوقف السفينة شهوراً طويلة وانطلق في مسالك الهند شارباً من ينابيع المعابد والطقوس والمراقص والحانات، أتلمس أهاب المغنيات واغتسل في ينابيعهن. كنت أتشرب كل شيء في هذه الحياة، أمتصه في ذاتي واحيا بنوره وناره. تدخل أنت وتقول لم لا يعود إلى عمله، السفينة غدت مزرعة للطحالب. ثم إذا بي اندفع إلى البحر وأرافق المياه اشهراً طوالاً. وتضجون أنتم بالصياح وتتفتتون من التعب، ألحفتكم هي المياه والعواصف وأصدقاؤكم هم الحيتان وقروش البحر والأشباح.. حينذاك كنت أكتب وأكتب وأفكر بأراضٍ أخرى بعيدة وخلجان لم ترها عين.

ـ وها أنت تحضر لشطآنك غزاة جدداً. هنيئاً لها هؤلاء التجار القساة!

ـ وما أدراك!

ـ ألم تسمع كيف لاحقوا العرب هناك في المغرب واندفعوا وراءهم بمدافعهم في كل مكان؟!

ـ هنا شيء آخر. إنهم بعيدون عن أراضيهم، مجرد سفنٍ معدودة

تريد الوصول إلى آبواب السلع، والعرب يملكون كل هذا المحيط الشاسع، سفنهم كالجراد فوق الحقول. فلنستمتع بوقتنا، ولنعب من اللذة والفرح حتى نشبع ولا نشبع، ولا نخف من الأعاصير البعيدة..

غمغم بشيء لم تسمعه ثم سأل:

ـ ماذا تريدني أن أفعل الآن؟

ـ اذهب إلى المدينة التي رسوا فيها وانصت إلى الأخبار.. ولا تنس ذكري وسيرتي!

غسلتَ ثوبك وانتظرت ثم جاء الليل يتعكز على نجوم واهنة. اندفع هواء جنوبي ساخن فأيقنت أن البحر فتح شبابيكه وراح يدعوك. ملأ الأشرعة بالحب وغمر الشطآن بالقبل. أطلق القواقع من مصائده والأسرار من أمواجه.. ليتك لا تحن إلى هذا المجنون المتربع على الكون أشعل بأصابعه الحياة واشعل قلبك بالعشق.. لتكن هذه الكأس في صحته التي لا تدوم!

تسمع خطوات نجم الهادئة الرقيقة، كأنه يخجل أن يصفع الأرض بنعاله. هذا الغصن النابت من شواطىء الصخور.

ـ ليسوا تجاراً فحسب!.

ـ وجهك ينضح بالألم، ماذا بك؟

ـ سفن عملاقة لم تشهد لها هذه البحار مثيلاً.

ـ ماذا يريدون؟

ـ أنت تعرف ذلك.. أفواه مدافعهم فوهات براكين. سألوا عنك!

نهضتَ من مجلسك. هل جاءت المغامرة؟ اسمه، هل وصل إليهم أيضاً؟ ليس بعيداً أن يفهمه أولئك أكثر من هؤلاء. سيقتلك هذا الصبي قبل أن يتكلم!

ـ قل، ماذا قالوا؟

يجلس بهدوء. ويرفع الزجاجة الفارغة.

ـ ليس هم الذين سألوا عنك بل موظفو الملك. لقد قال الملك لهؤلاء الغرباء أن ثمة رجلاً كهلاً حكيماً هو الوحيد القادر على ايصالكم إلى كنوز الشرق. لقد تاهت سفنهم وأكلتها الرياح وتساقطت هنا وترنح رجالها.. تستطيع أن تتركهم حتى يتعفنوا ثم نشتري سفنهم ومدافعهم بأبخس الأثمان..

ـ وكيف هم؟

ـ لم أقترب منهم. لكن بعض الأهالي رأوهم. لقد نزلوا الأسواق للشراء. آه، كم هم متلهفون ومتساقطون على النعم والفواكه والأخشاب.. كأنهم لم يروا حريراً أو موزاً أو ذهباً.. يشترون شيئاً قليلاً ثم يتطلعون إلى الباقي بنهم وحسرة وحقد.. خاف الأهالي من تلك العيون الزرقاء المجنونة. جروا أطفالهم من الطرقات.. المدينة كلها خائفة من غضب وطمع تلك السفن..

ـ يا له من ترحيب بارد!

ـ يقال أن ربانهم الماكر قد حبس كثيراً من بحارته خوف اندفاعهم نحو المدينة وسلبها!

ـ يا لخيالكم المريض!

ـ وخيالك أنت! انت مستعد الآن كما يبدو لكل شيء. ثمة أقوال كنت أخاف منها، أحسبها مجرد هلوسة كهل ثمل. أقوال استعيدها هذه اللحظة بخوف ووجل. أجل.. أنت لم يعد يهمك شيء، حواسك ودغدغتها باللذة هو الوسواس الذي يسيطر عليك. خائفاً من الموت كصبي ينام قبل العيد. جبان يريد أن يهرب من جيشه إلى المواخير.. كهل صبغ شعره ويخطب ابنته!

ـ من أنت لتكلمني بهذه اللهجة!

ـ لم يعد يهمك شيء. مستعد أن تكون بارودا في مدافع البرتغاليين، بصراً في عيونهم العمياء، اسكت، إنني لم أعد قادراً على احترامك!

صمت فعلاً. لست قادراً على الكلام. إنه يرسم خريطة غريبة، ويقودك إلى بلد الثلوج لتحاصرك الدببة والذئاب القطبية.

لو انتظرت أياماً فستغدو شحاذاً. إنهم يكرهونك ولا يريدون لك مجداً. انصت: رحلتك ستكون عاصفة في التاريخ. قارة تخرج من الماء لتمتلىء بالأشجار والثمار. طوفان تجارة سينهمر لتزدهر مدن وشطآن. اذن حطم الزجاجة الفارغة لتبدأ رحلة عظيمة!

ـ اذن سأودعك هنا. يعز علي أن نفترق بعد سنوات مليئة بالحب.

في الصباح حملت معداتك الصغيرة والخفيفة: الخرائط والكتب وآلات البحر. كان ينظر إليك بحرقة عند عتبة الباب. بكى. رأيت دموعه تنهمر وعينه تحمر. قلبك يندفع إليه..

يقول:

ـ لا أستطيع أن أتركك لوحدك مع هؤلاء.

تضمه بود:

ـ جعلت من هذه الرحلة كارثة قبل أن تبدأ!

معاً تقتربان من السفن. إنها حقاً كتل عملاقة، أشبه بمدن صغيرة تنساب فوق اليم. ثمة صوار كثيرة فيها. وها هو جيش البحارة يتطلع إليك باستغراب: رجل كهل، مهلهل االثياب، يضع كوفية ضاعت الوانها، وتتدلى منه لحية خشنة، وليس معه أي سلاح، يريد أن يقود هذه الكوكبة من سفن أوروبا إلى الشرق!

ادخلوك على قائدهم. رجل يلبس ملابس غريبة مزركشة. شاب ناري العيون. صافحك بقوة. وراح يتمعن في أدواتك البسيطة مندهشاً. نادى على آخرين فراحوا يتفحصونها بدورهم. جلبوا لك مترجماً، وسمعت الربان يقول:

ـ الآن تبدأ صداقة جديدة بين الشرق والغرب، وأنت تدشنها أيها الشيخ الجليل!

لم تستطع إلا أن تهتز فرحاً. الأبواق تصدح، وحمامات تحلق في الأعالي، ثم انفجرت قذيفة مدوية في الفضاء. وعلى مرمى النظر راحت المدينة تحتفل باللقاء. اندفع الزنوج في الطرق ورأيت النساء ذوات الملابس المزهرة الزاهية يرقصن وأغصان الشجر والورد، وتعالت سحب الدخان من الأكواخ والبيوت.

انتفخت الأشرعة بالرياح، ومددت يدك نحو الشمال. دهش البحارة والربان وأنت تأخذهم بعيداً عن الشرق.

دخلت كبينتك الفخمة. رأيت نجماً يحدق في الغابات العذراء القادمة.

ـ أرأيت أن كل شيء يمر بسلام؟! وبعد أسابيع سوف نتمرغ على رمال شواطىء الهند ونرتوي من ينابيع لذتها..

مضى يومان ثم عدلت مسار السفن نحو الشرق. امتلأت الأشرعة بهواء المحيط وراحت تسبح بانسياب نحو الشرق.

كل شيء لديهم يثير استغرابك.. عالم غريب وجديد يولد. أدوات مختلفة، أحياء كثيرة تصطاد من البحر وتفحص وترسم. محار يفلق ويوضع لحمه في زجاجات. لؤلؤ صغير يثير جدلاً صاخباً، يشيرون إلى جهات بعيدة. خرائط كبيرة موضوعة على الحوائط يرسم عليها المسار. عملهم لا يدل على تجارة فقط. بدأ خوفك.

جلستَ مع الربان على مائدة العشاء، طالعك المترجم قائلاً:

ـ أنت تعرف جيداً بلاد الشرق؟

تمتمت

ـ يقال أن لديك كتباً عن البحار. هل معك نسخ منها؟

ـ نعم.

ـ سوف أجلس معك لأسجل كل ما تعرفه أيضاً.

ـ ولكن.. لكن لم نتفق على هذا؟

ـ كل شيء بثمنه.. لم تخاف؟ نحن نريد أن تحفظ هذه المعلومات الثمينة. أوراقك ستندثر هنا. سوف نترجمها ونبقيها على مدى الدهر.

وقبل أن تقول شيئاً كانت دفاترك بيده لكن استعصى عليه فهم اشعارك.

لا شيء سوى البحر والريح. امتداد ازرق لا متناه. أنت الآن في قبضة اخطبوط ناعم شفاف يلتف وكأنه يرقص. أفواه تسأل عن جلنار وأوال. يرصدون كل حجر. يسجلون كل نأمة. هل هؤلاء تجار؟ عيون نجم تطالعك برثاء قاس. لم تستطع أن تبلع أكلهم الغريب. تقيأت. هل هو دوار البحر أم دوار السنين؟

خطفوا كتبك وأدواتك. تستطيع أن تقودهم إلى مملكة الدببة في الجنوب ولكنك مذعور. أيها المتشبث الرهيب بالحياة!

عيون نجم تطالعك في السماء ظلمة تبتلع آهاتك. أخدود عميق تنهار فيه ولا حبل، ليس مجداً ولكنه عار. تخاف أن تعلن عن شكوكك سيرثيك ويقرصك. هل لا بد أن تتعلم الآن من الفتيان؟ هل ضاع العمر

في الماء ولم تعرف شيئاً عن المدن والغزاة؟ لِمَ لم تتعلم زوايا طلوع الأعداء؟

إنهم فرقة استطلاع تكتشف كل شيء. وانت حارس الماء أعطيتهم مفاتيحه. ألا ترى الموج يصطخب؟ الآن لا ينفع الندم ولا البكاء. ورأسك يفقد الأجوبة. تدور الأشياء، يغدو المحيط جبالاً ترتمي على وجهك. تسقط. ترى نفسك عند قلعة هرمة على الخليج. عجوز أبيض جلده. تتساقط عليه الحمم. لا القلعة تؤويه ولا الأشجار التي تحترق. يا للعنة! الدوار من جديد.. تقيأ نبيذك وأيامك.

لو أن هذا الماء ينبثق فجأة عن أرض فتتسرب إليها أو يبزغ طريق وعر بين الماء. كم يبدو مصيدة بلا حدود. كيف هو كبير وقاس إلى هذه الدرجة؟ ألا يراعي حق الرفقة؟

يأتي النهار ونجم يدعوك للراحة. دعني أيها الفتى البحر ليس كالبر. ونفسي الآن لا تهفو لزجاجة أو امرأة. خائف من هذه الأشرعة المندفعة كالبركان.

نجم هو الوحيد الذي يمكنه أن يسرّي عن نفسك. دعه يخدعك قليلاً، دعه يقول إنك مصيب، وأن الناس سترقص فرحاً على الشواطىء.

أي لقاء هذا وأي مجد؟ لو كان بإمكاني أن آكل اصابعي أو ألقي بنفسي في المياه!

ترنحْ على الخشب وحاول أن تهدأ وتنام. أين ذهب الشاطىء الجميل والنبيذ والغابات والحوانيت؟ لماذا لا ترى سوى هؤلاء البحارة الغلاظ المدققين في صمتك؟

ها هي جزيرة كبيرة تدنو. قرى صغيرة وقطعان من الماشية وحقول واسعة. كم مرة جئت إليها ورسوت تعرف رجلاً عجوزاً طيباً صاحب

حانوت، وقرية صيادين تتدلى فوق أحجار. هل تسنح الفرصة للتسرب إلى بيوتهم الصغيرة المتوارية؟

تتوقف السفن وترى قوارب صغيرة تنسل منها نحو الجزيرة. فجأة ترتج السفينة بعنف، ثمة قطعة نارية انبثقت منها. لعلها تفجرت خطأ. لكن قطعاً أخرى تومض وترعد في الجو. تحدق في الجزيرة المشتعلة. القوارب تصل ويندفع البحارة سيلاً مسعوراً من الشهوة المدججة بالسلاح.

تتجمد أصابعك على الخشب. ويكف لسانك عن الوجود.

إن العقد لم يُنقض. إنه ينص على أن توصلهم إلى البر الكبير البعيد. هل طلبت أن لا تستباح جزيرة أو أن لا تسمع صيحات نساء ينتهكن في عرض الطريق أو أن لا تحمل القوارب قطعان الماعز ونقود الصيادين؟

انتظر الآن استباحة الساحل الكبير!

نجم يندفع صارخاً بين دهشة البحارة. أنت تعلن الصمت التام. فليتوجهوا أينما يريدون. لم تعد لك علاقة بهم. صافحت تجاراً وليس قراصنة. قدمت قنطرة لغريق فإذا هو تمساح. كن مضرباً عن الكلام. يأتون إليك يبعث لك الربان. يملأ القطن أذنيك وأنت تسمع تأوهات البحارة فوق النسوة. طابور طويل ينتظر دوره. خراف تذبح وتسلخ وتتفاقم رائحة الشواء والنبيذ. معدتك تتلوى ألماً. لا تريد سوى أن تذوب في الشاطىء. هذه التأوهات ستغدو رفيقة أحلامك. جثتا امرأتين تلقيان في البحر.

هذه المياه كم رأت. لصوصاً كثيرين، قراصنة، نخاسين، تجاراً، سيلاً من البضائع والسيقان والدماء. كنت تتطلع ببرود إلى العبيد وهم يصفدون في القاع ويرسلون إلى بلدك. ثمة شيء كان يطفو في نفسك

وسرعان ما يركز في القاع. والآن يندفع متفجراً!

يأتون إليك كي تفتح الجهات الموصدة. صمت مطبق. لو صرت جثة في هذه اللحظة فلن يهم. لتمت، شبعت من الحياة. الربان يهدد. ينتزعون نجماً ويربطونه على أحد الصواري. يمزقون ملابسه، تنهال السياط الضارية عليه. تأكل من جسمه وتشرب الدم.

ـ ستتكلم أيها العجوز المأجور!

ما الفائدة من الصمت؟ بضعة أيام وتلوح أنوار الشاطىء، نجم قد يموت، فتى طازج يانع كالزهر. أظافره تكتب على الصاري بلون قان. يصرخ: لا تتكلم! هذا هو شرفنا الأخير أيها الكهل!

لن أكابر. دفأت الثعبان في صدري. اعطيتهم لحمي لكي يبيعوه مسمماً. لماذا صار النبيذ دماً والماء مستنقعاً وفخاً؟ اصابعي تجمدت، ولساني لم يعد ينهض. لن أدعك تموت أيها النجم الوحيد في هذا الأفق المظلم حتى لو طاردتني أحجار الأرامل وعصي الشيوخ في المدن. لن أدع هذه العظام تتحطم.

لماذا انطفأت الحواس فجأة وجف نبع الشهوة؟ دماء النساء هنا قرب قدمك، وأصواتهن غرقت في المياه. استحالت الجزيرة إلى خيوط دخان، أي أفق سيكون؟ سفن، جيوش قادمة، زوابع من خشب وحديد ونار، تنهمر في الجزر والمدن، سيول تحرث الأيدي المتشبثة بالزرع، أي عالم مجنون؟ لا بد أن تصل إلى الشاطىء وتقول: تعكز على هذا الشاب الجريح واصرخ. غيرالأوراق لتبدأ السيول.

الأضواء

تمازج الضوء الساطع بأنفاس البحر الرطبة فاشتعل قدر المياه اللا محدود، وبدا كأن بحراً ثانياً، محترقاً. يطفو فوق المياه المشتعلة. ولم تظهر أي أرض، أو طير، أو شجر، وبدا لهما أن السماء ذاتها اشتعلت وتساقطت حمماً، وأن الريح التي كانت تنفخ في الشراع الواهن غدت رماحاً تنغرز في البدن.

التصقاً معاً، كعصفورين انتزعا من عشهما، ووضعا في قفص، للبيع في سوق مليء بجمهور مسعور، أو كأنهما نبتتان صحراويتان في أصيص زجاجي بارد. حدقا في بعضهما البعض، وتطلعا إلى الخلف، حيث الساحل الآخر، البعيد.

هناك قريتهما، متوارية وراء الجبال والهضاب، تتوهج الآن تحت شمس هادئة، والحمير تتوغل في الأرض المحروثة، وأهلهما وراءها، أو جاثمون تحت الأشجار، أيفكرون فيهما؟

هجرا القرية، وسارا إلى المدينة، دفعا مبلغاً كبيراً حتى يصلا إلى الميناء. وقضيا ثلاثة أيام يبحثان عن مركب تنقلهما دون جدوى. كان بعض معارفهما يختبئون في قعر السفن مع الغنم، حيث سيتسللون في الليل إلى المدن النائمة. لكنهما لم يحصلا على موطىء قدم بين الحوافر.

ثم قادهما رجل ما إلى ربان هذه السفينة الصغيرة، الذي بدا كريماً وهو يحدد المبلغ المطلوب، وصاح «هذه مهمتي! كم مرة نقلت شباناً أقوياء إلى مدن النفط. بعضهم جاز ثروة كبيرة الآن» وحكى لهما قصصاً عن أولئك الشجعان.

لم يستطيعا أن يحصلا على مكان لجسديهما بين أكداس البضائع والحبال، وجدا مساحة صغيرة التصقا فيها ونضجا عرقاً ولهباً.

كانا متلاصقين، أيضاً، تحت شجرة في ذلك الحقل البعيد. حسن الطويل، النحيف، هو الذي كان يجر مرتضى، القصير، الهادىء، إلى المغامرة. يصيح فيه «أتعجبك العيشة هنا مع الماعز والعجائز حيث لا ثلاجة ولا سينما ولا خمر! هيا احلم بالمدن الذهبية، مدن النفط، حيث الثروة والنساء والمتع! هيا قم من رقدتك في الروث!».

وخلال شهور راح مرتضى يستمع، في الليالي المقمرة، فوق السطح، إلى جعجعة حسن، وكأنه يرى الأسطوانات وهي تدور في المقاهي، ورزم المال تملأ الجيوب، وهو يعود إلى قريته بسيارة جيب متجهاً إلى بستانه الذي اشتراه.

وكل عائد كانا يسألانه، ويتبعانه إلى منزله، ويريان، من فوق الحائط، الأشياء الغريبة التي حملها.

راحت السفينة الصغيرة تتباطىء في سيرها، حتى هذا المحرك تماماً. التفت الربان إلى الشابين المحدقين في سراب المياه. وقال: «هيا انزلا! خوضا البحر، انه ضحل هنا، وتمنياتي لكما بالتوفيق».

لكن حسن، التفت هنا وهناك، وصاح به غاضباً «أين المدينة؟ وشاطئها؟ إنني لا أرى بيوتاً؟».

ابتسم الربان وقال: «هل تريد أن تصطاد في الدوريات أيها

الصغيـر؟ إنني أنزلكمـا في أقرب نقـطة إلى الشـاطىء. أتـرون تلك الجزيرة الصغيرة هناك؟».

بحث الشابان، بعيونهما المتعبة عن الجزيرة، فوجدا مجموعة من الصخور والتراب بين المياه، وعادا ببصريهما إليه مستغربين».

أكمل «هذه الجزيرة لا تبعد كثيراً عن الساحل. في الليل أمضيا نحو الأضواء، سترونها خافتة لكن لا تشعرا بالخوف. المياه ستكـون ضحلة والجـزر سيتسع. سيـرا بهـدوء وحـذر، ستصـلان المـدينـة. وستنعمان بالعمل والثروة. وإذا احتجتما إلى أي مساعدة تعرفان اسم المقهى الذي أتواجد فيه. مع السلامة!».

نزلا. التحما بالصخور المشوهة المشقوقة بأسياف المياه. تطلعا إلى الأرض البعيدة، رأيا خطوطاً بيضاء وخضراء. أخرجا الخبز والبصل وأكلا بشهية. ثمة مساحة من الرمل يستطيعان أن يتمددا فوقها ويغتسلا بالماء. لم تبق سوى ساعات، ويلتحفان بالظلمة، ويتوحدان بالمدينة.

لكن حسن لم يهـدأ، وغمغم فـوق رأس مـرتضى: «أليس من الأفضـل أن نتسلل الآن. يبدو الجـزر واسعاً؟». لكن الآخـر استلبته غفـوة، وحلم أنه يخـطو في الأزقة، بين الشـوارع الواسعـة، المليئة بالدكاكين والمقاهي ورجل يطارده، وينتزع كل ما في جيوبه من رزم. تمعن في وجهه فإذا هو الربان البدوي. يقهقه ويستل خنجراً من جرابه ويطعنه. فزع وتألم ورأى الكون يحترق كتنور، والطيور تحوم مشتعلة، ثم أبصر نفسه يسبح في مياه عميقة، ورأى حسن طافياً كجذع شجرة. صحا، فإذا بركة من العرق حوله، ووهج شمس الظهيرة خف قليلاً، ولكن المساء لم ينزل بعد، وأزعجته أصوات المياه، التفت فإذا هي قادمة نحوهما ولا تتراجع كما زعم الربان!.

تطلع إلى حسن فوجده مستغرقاً في اغفاءة عميقة، بين الصخور.. هزه قليلاً وصاح: «جاء المد يا حسن، جاء المد؟!».. وكان حسن قد

حلم هو الآخر، بأنه يطير، يصير طائراً، ويعبر السماء الزرقاء وفوق عينيه نظارة ذهبية. ثم انتبه، وحدق في المياه القادمة نحوهما. نهض. غضب. قفز من فوق الصخرة، وركض في الدائرة الصغيرة، متطلعاً في المياه المستفزة. وركض نحو صخرة أخرى وصعدها، وتطلع إلى الآفاق، وصاح بقوة «خدعنا!». واندفع حانقاً «ألم أقل لك إننا يجب أن نعبر في وقت الجزر؟ علينا الآن أن ننتظر حتى اليوم التالي.. في ظل هذه المياه المتلاطمة!». وتطلع مرة أخرى، صوب الشاطىء، والمدينة المتوارية، وقال «ثمة مياه غريبة وكبيرة تندفع من هناك أيضاً».

لم تكن سوى ساعة حتى ضاقت الدائرة، المياه الرقراقة المزعجة تدق الجزيرة المتضائلة، وأصابعها الشيطانية تأكل القواقع والرمل والحجر. تقدم لهما أعشاباً وجذوراً ميتة. وهما يرتفعان ويصعدان للصخور.

تأملا: لم يكن ثمة سوى الماء سيداً، ملكاً، يفرض سطوته في كل مكان. ناعماً، خافتاً، متلألئاً، مغنياً، يوغل في الشقوق البعيدة، ويصفر بين الصخور.

أمسك مرتضى صدر حسن، بيديه الاثنتين، وبكى. صاح به الآخر «كف، كف عن هذا البكاء، سنتمكن غداً من خوض هذه المياه الملعونة، والوصول إلى الشاطىء، سترى، وسنغني معاً ونشرب ونجمع النقود..».

لم يكمل، لأن الماء، وقد سمع اللعنات والتحدي، قرر أن يصعد نحو الصخور. وأمسك حسن الصخرة المشوهة من غمر المياه فذعر، حدّس مرتضى وهدأ عن البكاء. طالع حسن الأشياء، عساه يجد أخشاباً، ولم يكن ثمة سوى قطع بيضاء صغيرة طافية لم يعرف ما هي.

قال: «لن تصل المياه إلى هنا وإذا وصلت.. فهو ذراع، أو أكثر

قليلاً. وسنظل نتشبث بالصخور إلى أن يتراجع المد. سنحيا، سنصل إلى الشاطىء».

هبط المساء، كحشد من العباءات، وبدت الأغصان الجافة من الضوء القاني كآخر الأشجار. وعما قريب سينطفىء الحقل.

فحيح البحر امتزج بالبخار الساخن اللافح وهواء الأبر ولزوجة الصخور الهاربة من الأقدام.

وها هي أصابع المياه تلحس أقدامهما، وتحسس مذاق جسديهما، وكأن جيشاً من النمل يندفع في شرايين عود قصب.

من بعيد، بدت أضواء خافتة مثل مصابيح فقراء في أكواخ قصية، أو نجوم منكسرة في ليلة غيم وضباب، وهذا هو الماء يتذوق صدريهما، ويبقبق حولهما قدراً يطبخ أحياء لمائدة مجهولة. وفجأة تأوه مرتضى واختفى، صاح حسن طويلاً ونادى، لكن الماء وحده، كان يثرثر مع ذاته، ولم يكن ثمة صدى، وبدا له أن قريته قريبة، وها هي أشجارها تلمع تحت الشمس الدافئة، والحمير تتوغل في التربة السمراء المتشققة، وكأن أحداً يمد له يده، والأضواء البعيدة تفتح جسراً، مد أصابعه، مد ذراعه، وأمسك الهواء. وسقط في المياه الغامرة.

ليلة رأس السنة

يتجولان كبنطلوني جينز قديمين مهترئين، وحدتهما السكرة والخمرة والغترة، يتداخلان كهذيان محموم ، يتفارقان كعنزتين تستعدان للتناطح الموجع، يفتحان عيونهما الثلاث على هرم الفندق وعناقيد ضوئه المتدلية كرمانات شمسية تزغلل بصرهما المعشي، ويرقصان على أصوات الموسيقى الصاخبة التي تحول الفندق إلى راقصة مصرية تضج بالأنوثة والوهج، ويزدادان بحلقة في أرتال السيارات التي تعاركت على كل بوصة، وتلألأت بأنواعها الفخمة وزجاجها البراق ونسائها المضيئات المبرقشات الطالعات بأكتافهن البضة العارية المشتعلة، وصدورهن المستفزة، وفي البالونات الضخمة التي تدلت وحلقت فوق الجدران والأعمدة، وفي رماد الفضة المنتشر المشتعل على الرؤوس.

وفجأة انفجرت ضجة عندما وقفت سيارة سوداء طويلة كالقطار، واندلعت منها امرأة صغيرة بيضاء. لم يكن جداراً الذي كان قربهما بل صف طويل من شبان ذوي بدلات أنيقة، أنتفضت أجزاؤه أيدٍ مرتعشة وصدوراً مفتوحة وألسنة صارخة، وكادت السيارة القطار أن تختفي لأن الشبان نزلوا بالمظلات والقبلات على تلك الحمامة الصغيرة، التي طارت من داخل بركة الفوضى، بجسد متراص من الحراس الفولاذيي القبضات والركلات.

الضجة ثارت في الفندق الذي صار الآن أفعى هندية تتلوى بين النجوم.

قعدا على الرصيف، متلذذين بعادم السيارات الممتزج بأغنى العطور، متتبعين كتابة السيقان الجميلة الثاقبة على الحجر، ولم تنتبه الأحذية الصلدة إلى جلدهما المتوحد بالطوب، وحسبت خرقتيهما منفضة قديمة ملقاة، أو فزاعات طيور لوحت بها الريح بعيداً.

ينتشيان، يغنيان، يدخنان، ويمدان أيدٍ إلى فساتين زاهية تُرعب فجأة، ويلاحقان ظلالاً سكرى. لكن لم يبق على الرصيف سواهما، وكتل صماء من المعادن الباردة الرطبة، ولا غطاء، ولا ألحفة متطايرة، سوى عيون النواطير وجرائد لا تدفي عصفوراً.

الفندق ينتعش ويرتعش، ويصيح من النوافذ، ورغوة البيرة تغدو نافورات، وأشرطة ملونة تبتهج في الهواء، وتحزم خصور النجوم في رقصات غجرية.

يمشيان، يلوحان للنوافذ بشتائم بذيئة. يسأل حمدٌ سلماناً، أليس لديك سيجارة، ينفض الآخر جيوبه، ليذرو رملاً ورماد فراشة.

غابة السيارات لا تفتح باباً، والنوافذ المحكمة الإغلاق تتعاون مع أصحابها لحجزهما في البرد. يطل حمد على الظلمات وأشباح الحقائب ومحافظ النقود المنسية، وينادي ذا العينين الحادتين، الذي يفضح رداءه بصره وأمانيه.

بَرْدٌ، السماءُ تنث هواء تلجياً، والأرض الموحلة تجذبهما إلى طراوتها اللزجة، ونار الأصدقاء بعيدة. ويرى سلمان شبحين متعانقين في إحدى السيارات. يجر صديقه ليريه المنظر ويهمس: سنباغتهما لندخل الفندق! يرتعد الآخر ويصرخ مكبوتاً: لا!

نافذة إحدى السيارات القريبة تسمح لهما بمعاينة الداخل،

والحصول على علبة سجائر هندية، ورخصة قيادة، لكن لا شراب!

يتمعنـان في الجسدين اللذين يـواصلان رحلة التـداخـل اللدنـة والحمحمات الملتهبة. يدق سلمان الزجاجَ مبحلقـاً ضاحكـاً، متلذذاً بالارتباك وانـدفاع مـلابس المرأة لصـدر الرجـل والصراخ المقتـول. همس:

ـ أتريدان أن أعوي.. هيا أعطوني شيئاً!

هتفت المرأة:

ـ ابتعدْ يا وغد!

كبرت ضحكته وهو يتكىء على الباب الأمـامي، ويتحسس وجه وخبايا المرأة المذعورة:

ـ ولك عين أيضاً! هل تريدانني أن أنادي النواطير القريبين.. هيا اخرج ما في جيـوبك! اسـرعْ! لا أريد سجـائر! نعم أعـطني ما في المحفظة...

كلها أوراق؟ إذن استل تلك الطيور الزاهية بألوانها الحمراء! هيا.. أسرع!.

التفت سلمان إلى حمد ضاحكاً، لكن فوجىء بلكمـة حادة، أبعدته عن الحديد ليحضنه الوحل. تمالك نفسه بسرعة ونهض. كان الرجل قد انتقل إلى المقعد الأمامي، بنصف ثيابه، وشّغل المحرك. أنقض عليه، وكان حمد يمسك أطرافه ويريد سحبه، لكن قبضة سلمان لم تصل إلى وجه الرجل، بل حبسها الزجاج الذي ارتفع فجأة، وتحركت السيارة وأصابعه المحبوسة وجسده الذي دار كالمروحة المنظفة للوحل والسيارات، وكان السائق يصرخ خائفاً غاضباً، وسلمـان يهتز ويـدور ويفقد بصره الفندق وتتحرك الأشجار نحوه، حتى حصل على اصابعه وغرق في بركة.

جلسا عند جدار يعدان مسروقاتهما وكدماتهما، في ظل ڤيللا كبيرة، امتلأت غرفها بإضاءات مبهرة وغناء، أطلا برأسيهما، ورأيا جمعاً من النسوة والرجال الشقر، يغنون ويرقصون ويقبلون ويأكلون، بشراهة.

صعد حمد الجدار وقبضتا سلمان تدفعه بقوة. نزل على عشب هادىء. زحف نحو المخزن. الأغنيات وصرخات الفرح تمر فوق رأسه. تغلغل في المكان المعتم، وتلألأت صناديقه المعبأة بالزجاجات والمكسرات والحلوى. ماذا يحمل؟ الصندوق ينوء بكتفه، والزحف لا ينفع. فوجيء بالضوء ينفجر فجأة! وخادم أسود يصيح مرعوباً! لكن ركبتيه المتخاذلتين لم تنسيا يدَه حمل الزجاجة. وكان قفز السور، مثل قيد زجاج السيارة مليئاً بالضربات الموجعة.

على الشاطىء الجريح يسيران، طالعين كعفريتين من قنديل المدينة الصديء، يتحسسان زجاجة غريبة ستطلقهما صاروخين لمدار البهجة.

في ظلال سفن النادي البحري، وروائح بتروله العنيفة، وتلؤلؤ جدرانه، أفتضا بكارة الزجاجة المذهلة. لا يعرفان سوى تاريخها العتيق وطعمها الناري.

يطيران فوق المدينة. ويحملان رشاشات تفتض الخزائن والموانىء والنساء. يشعلان القصور والنهود. يمتزج شعرهما بحشائش وكائنات بحرية. يتطلعان إلى اليخوت الضاجة بالصياح وانفجارات الشمبانيا وضحكات ذوات الشعر الذهبي، وهي تشق الأمواج والليل، فيريان نفسيهما يسبحان كقرشين ضاريين.

كانت رائحة البترول نفَّاذة، والقوارب الصامتة في الظلمة تتوهج فجأة بعود كبريت. دائرة النار تكبر، يتطالعانها ضاحكين، سعيدين بالدفء، واحتفالهما المشتعل الخاص.

خميس

منذ عرفت هذا الرجل صارت أحوالي غريبة. كنت رباناً ذا سفينة صغيرة، تصطفق ألواحها، وهي تدب على الموج المشاكس وتتوغل في مساحات اليم البعيدة، ويتجمع بحارتها الضعاف، ذوو الهياكل العظمية المنحنية، ويتساقطون في المياه كأنهم لن يرجعوا أبداً، ويعودون بمحار مليء بالتراب والأعشاب، يفلقونه لنجد لحماً متغضناً. ونعود بسفينتنا بأغانٍ كئيبة شاحبة لنقبع في برد الشتاء والدثارات الثقيلة.

في أحد النهارات القائظة، ونحن نستعد لرحلة بائسة جديدة، وقف فوقي عملاق أسود حجب الشمس، وأراد أن يضاف إلى البحارة.

منذ أن صعد إلى ظهر السفينة تغير كل شيء. أين ذهب ذلك القيظ الساخن ولماذا اندفعت الكفوف والحناجر لتشعل الشراع وتلتهب صفحة الماء؟ وكيف بدا ذلك العملاق كأنه هو الذي يدفع السفينة جاثماً في مقدمتها فاتحاً دغل المياه الفوار؟

غاص في اليم طويلاً، وذعرنا، وخشينا أن لا يخرج أبداً، لكن الرجل طلع فجأة، بعينين حمراوين، وكدس تلاً من المحار الكبير الغريب، وما هو إلا نفس، حتى عاد كرة أخرى إلى الأدغال الخفية، وسمعنا كأن صوتاً جهورياً رخيماً ينساب في الأعماق، هل كان يغني؟ وما هذه الكتل المتعاظمة من المحار؟ هل كان نجدة من السماء لانقاذي؟

في الليل شعرت بالسفينة تهتز. نهضت. كانت الظلمة تخفي ملامح الأشياء والرجال. اقتربت من الأجساد المنهكة النائمة، فلم أجده بينها. وثمة وشوشة وهمس في المياه!

ارتعدت وأنا أندس في فراشي. أيقنت أن الرجل عفريت. وتذكرت كيف بدا جسده الضخم، وعضلاته القوية، ونظرته الشقوفة الحنونة للمياه، وكأنه سيذهب لمعانقة حبيبته، وليس للانغمار في غبة مليئة بالضواري. وها هو الآن يثرثر مع أصحابه، ويغني، وربما غاص في الأعماق، ونام في سريره المائي بين قروش البحر وجنياته.

فتحنا محارَةُ فذهلنا لتدفق اللآليء.كرات الضوء النارية كانت تتفجر من بين اللحم الطري والرمل والأعشاب. تجمعت في يدي تلال من الفضة المشتعلة، ورأيت بيتي الصغير القزم المشوه يستحيل قصراً، وأنا أغني في رحلة العودة، والبحارة جسد مشترك من الفرح.

قربته مني، أعطيته أغنى السمكات والأرز المضمخ بالزيت، وضعته في صدارة مجلسي، تحدثت كثيراً عنه، وهو صامت، هادىء، تتراقص الطيور قرب عينه، ذاهل في ملكوت خفي، ربما كان يحدث أحداً الآن، ويلقي بخيوطه لملكات الجن الساحرات، ويبحر بين قصور من ذهب ونار.

يداه العميقتا الغوص، ملأتا خزانتي بالدرر، لم تعد لي كوكبة من الهياكل العظمية الشائخة، بل جيوش من الفتيان الضاجين بالصياح، المندفعين إلى الأعماق، وكتل من السفن العملاقة التي يرتجف البحر تحت خشبها الجبار.

ذهبت معه إلى الهند. أردت أن أُفرحه بطعم النساء والمدن الغريبة. لكن الرجل كان يتركني ليتسرب إلى الأزقة، ويصادق الحواة والسحرة والمهرجين. راح يخرج من جيوبه طيوراً وبيضاً، ويمشي على نثار الزجاج، والمسامير، وهو يضحك. رأيته مرة يطير من نافذة

الفندق. خفت. أرتعبت. هذا الرجل سيهلكني ويستولي على ثروتي وقصري وبناتي.

كانت الغرفة مغلقة، وضوء المصباح الشاحب يرسم مارداً على الجدار. كان يراسل أجساماً لا مرئية، وبدت بشرته السوداء الصلدة كمنجم، أو غار عميق في الأرض.

ما الذي جعلني أثق به وأنام معه في غرفة واحدة؟ عرقي غزير، وهو لا يزال جاثماً على الكرسي، يرفض أن ينام..

جاء الصباح المنقذ، وذهبنا إلى الميناء، كان الجو صحواً، بارداً، وثمة هدوء عميق ساحر في الكون. قبل أن أركب السفينة أمسكني من يدي، وهتف:

ـ لا، لا يا عمي. لن نذهب في هذا اليوم!

صرخت به:

ـ ماذا بك، هل جننت؟

يدي كانت تحتج، وفمي يضج بالشتائم، إلا أنني كنت مرفوعاً على كتف هذا العملاق، وحقيبتي الكبيرة بيده الأخرى.

حبسني معه في الغرفة. كنت ساخطاً لذهاب اليوم الجميل بدون البحر الأزرق الشفاف، والمقعد في قبة السماء. غصت في الفراش اليابس المجعد وأحتسيت زجاجة كاملة.

كان الرجل كعادته جامداً في مقعده، راحلاً في عوالمه الغريبة، يتراسل مع فراشات نارية، ويجذف في مياه بعيدة.

فجأة ارتعش المبنى، اهتزت النافذة. تغير الكون كله، رعود وزوابع ومياه عنيفة تضرب الجدران وتقلقل الأشياء. اختفى البحر وغاصت السفن في اللجج المجنونة.

نظرت إليه وصحت:

ـ من أنت؟ من أنت؟

نظر إليّ بدهشة وقال:

ـ أنا عبدك خميس!

خميس، هذه الأسماء الغريبة، بزغتْ من مجاهل الغابات، ورقصت في ساحاتنا بتعاويذها وصلواتها وحركاتها، وضوّعت بخورها في مسامنا الداخلية، فرقصنا ودرنا وانتشينا، وغبنا ورحلنا في الأجساد الغضة، وانهار الحليب والليمون والمسك، أسيادنا وعبيدنا، اشباحنا وكوابيسنا، يواقيتنا وقمامتنا، أواه.. متى تنتهي هذه العاصفة؟

عدنا إلى البحر ومدينتنا. لا زال النضار الأبيض يتجمع في يدي، صار الرجل هو الذي يمضي للبحر، ويحصد بمنجله الحاد اللؤلؤ، ويلقيه في صناديقي. أضحك، وأشعل أولادي، واملأ البحر بالخشب والسواعد..

وذات يوم لم يعد لهذا الذهب من قيمة، صار تراباً.. غاصت السفن في القيعان، وانطفأت السواعد وشحب البحر، وفرغت الخزائن من الخبز والأرز. سرتُ في الطرق نادباً، بيتي الشاهق لم يعد لي، وعبيدي الذين يملأون الغرف هربوا، ليس لدي سوى قروش قليلة وعكاز قوي هو خميس أتوكأ عليه لنشر مراثيي.

سار بي هذا الجسد الصلد تحت مظلة الشمس، وفي برار بكر، وأنا مذهول لخطواته الحادة، والأعشاب التي يحيلها إلى ماء، والرمل الذي يصير ذهباً هارباً.

كانت جوقة كبيرة من الأجساد، وحشد هائل من الأعمدة والقضبان والأكواخ والصيحات. ثمة أغراب بيض يوزعون الأدوار، ويبحثون في الأرض عن أشياء عجيبة.

انضم خميس إلى الجوقة، وجثمتُ في كوخ أسجل الأنفار. كان يقود الجمع ويدور حول البئر، ويغني صادحاً بأغنيات البحر، يتحد الجمع وينهال المثقاب في بطن الأرض، ولا يظهر سوى ماء وطين.

يحتار الأغراب في خرائطهم. خميس يسمع نبض الأرض، يتذوق الأعشاب والحصى، ينصت إلى أصوات عميقة، ويدندن، ويقود الجمع إلى بقعة نائية. يحفرون. يتكتل البحر الأسمر الفاحم، وتغتسل الأعمدة بالعرق والدم، ويتفجر ماء ثقيل أسود، يرفع الأغراب قبعاتهم وزجاجاتهم ويشعلون الليل بالأنوار وأقواس اللهب.

يحيونني، ويعطونني طاولة ودفاتر ورجالاً. خميس ينزف إلينا رجالاً من المصائد والأطلال، وأنا أقود شاحنة مليئة بهم، أقذفها تحت الآبار والآلات، لتستحيل بيتاً كبيراً وسيارة سوداء كأنها ساحر ملموس.

الآن أتمدد في الظل مستريحاً، أرقب طوابير الرجال وهي تقتحم الصخور، أشرب الزجاجات الباردة، أدخن غليوني بلذة وأبهة.

وذهلت ذات يوم! كان ثمة ثلة من الرجال يحملون جسداً ممزقاً. لم يخطر ببالي أبداً أن يكون هذا المقطع هو خميس ذاته. خميس بلا ساق. ودم كالنافورة يشخب من ينابيعه الداخلية الفوارة. تجمدتُ. ماتتْ الكلمات داخلي. انطفأت المشاعر والأفكار.

من هذا الصائح النائح، كتلة اللحم المهروسة؟ أيعقل أن يصير خميس طعاماً لأسنان الآلة؟ أيغيب هذا النجم عن سمائي وأعود للرمل؟

قدته بالشاحنة إلى المستشفى. لن يعد قادراً على شيء. ربطوا ساقه، وأوقفوا النزيف الذي أحاله ليمونة يابسة. اشتريت له فواكه وخضروات وخبزاً. دفعت له حقوقه المالية وأنا ارتجف من الحسرة.

منذ ذلك اليوم انقطعت صلتي بخميس. بدا أن تعاويذه الجميلة أنزرعت في أيامي. ازهرت منزلاً كبيراً. سافرت كثيراً. امتلأت خزائن

شركاتي ومتاجري بالمال. وفي رفة كل زمن كنت أتذكره، وأتحسر على غيابه، وأحن إلى وجوده الفائض بالنعم.

لكنني لم أذهب ولا مرة واحدة إلى منزله، وحين تذكرت ذلك وأنا أدهس الأزقة الضيقة القذرة بسيارتي الكاديلاك العملاقة، تشوقت إلى رؤيته.

قادتني الأيدي العصي للصبية إلى كوخ حقير مهترىء، دهشت. سمعت بكاء.

ثم رأيت خميساً على ناصية الشارع، وهو يقود عربة بيع. كان ثوبه يستر جسده المقطوع، وذهلت عندما رأيته يجمع الصبية والناس ليرقص ويغني ويقدم ألعابه السحرية بكل خفة ومرح!

هذا الجسد لك

في تلك القلعة المشرفة على الوادي ذي الآبار وقطعان الغنم والسنابل الزاهية، في تلك القمة الحجرية المحاذية للغيوم والنجوم، بين ذلك الحصى الصلد المنتزع من الجبال القريبة، بين دهاليز رطبة وساحة ساطعة بالشمس:

تاهت خطواتها الطفولية، وانتزعت أصابعها الطرية حشائش مفعمة بالوحشية والمياه الفوارة. صعدت أقدامها الرقيقة نحو الكوات الصغيرة المحدقة في الجهات الأربع، وسمعت أنين المحتضرين في الطبقات السفلى الغائرة في الجبل، ورأت بريق السيوف وشمت مذاق البارود فوق السطح المشرف على المدينة والبرية والطيور والسماء.

هنا كانت المزاريب تجمع شآبيب المطر وهديره وتطلقه في الوادي خطوطاً متعرجة ثائرة، لتزدهر الأعشاب والزهور والفراشات، ولتملأ العصافير الشقوق القاسية بالأعشاب وكتل اللحم الصغيرة الضاجة بالجوع.

في ذلك السطح تبدو المدينة وهي تنّضج الخبز، وتطيّر ملابسها المغسولة النظيفة بأيدي الريح، وتطلق صغارها حشوداً من الأناشيد التي تلقي الأعشاب في الوادي، والأسنان الطرية في الشمس.

في الليل تهتز البراحات والخيام بالأضواء والأشباح، وتبدو كأن

المدينة تغتسل بالنـور والبهجة، وتبعث قنـاديل الأولاد في الغيـرة في النجوم، وترقص الحارات باهتزازات منجور(*) الرجال وهم يحتفـون بالأعياد، ويذبحون الماعز عند أفواه الخيام السعيدة.

من لها تلك الصغيرة الـزهرة الـراكضة فـوق السلالم العمـلاقة، المتعلقـة بأعنـاق رجال ضخـام تمتلىء وجـوههم بـاللحى الخشنـة، وصدورهم باحزمة الرصاص، ورؤوسهم بـالعقل الثقيلة، غيـر أختين تائهتين، حبسهما غول منغولي في تأتأة غامضة، وألعاب رملية غبية؟

من لها في ذلك البناء الواسع غير أم واسعة الصدر كالنبع الرقراق في البستـان، التي لا تتوقف أبـداً بين القدور السـوداء الضخمة المليئـة بالأرز، الراكزة فوق أثافٍ كبيرة أتـاحت فرجـة للخشب المشتعل ذي الـدخان الكثيف، الـذي تبعد أمهـا جسمها عنـه لتنحشر بينـه النسوة السوداوات العاملات، الأم الراكضة بين الغرف الخلفيـة والدهـاليز، الملتفة بعباءات وبراقع، والملتهبة العيون وراء النافذة، المحّدقة بنار الرجال وفناجين قهوتهم، والصامتة في غرفتها المليئة بالمرايا والرمانات الملونة، والباكية في سريرها البارد؟

حين تركض نحو الرجال، وتحاول أن تعبر البوابة الخشبية الكبيرة، من خوختها(**) الواسعة، قافزة نحو رتل السيارات الطويلة المصطفة، تنتزعها الأيدي القوية، لتنفض وراء النافذة الخشبية، ولتدق الحصى والخشب، وترى خطوطاً عرضية مبتورة من السيارات المنطلقة والرجال والصقور والبرية اللامتناهية.

ملتفة بأقمشة كثيرة، جسدها الصغير البرعم، ضائع بين ثوب النشل

(*) منجـور «آلة مـوسيقية شعبيـة تستخدم في رقصـة (الطمبـورة)، وهي مجموعـة من الغضاريف الموحدة في نسيج خاص لتبعث نغماً أثناء اهتزاز الرجل الـذي يحملها تحت بطنه.

(**) (الخوخة) باب صغير داخل الباب الخشبي الكبير في البيت العربي.

المصبوغ بألوان الزهر والشجر، المنسوج بخيوط الذهب، و «الملفح» الذي يحبس شعرها وجبينها وضحكاتها، وهي تنفجر لاهية حين تدغدغ أصابعها خيوط الحناء المرسومة كأغصان الشجر وأجنحة العصافير، وتسمع من المرأة السوداء الحكايات الغريبة وهي تكاد أن تلتهم بطنها بوجهها الواسع وأنفها الضخم. .

من لها غير الأم التي مشت لها ذات يوم، لتسمعها تئن، وتجد رجلاً، من أولئك الذين يحملون الصقور والبنادق، عارياً فوقها، وجهه غائص في صدرها، كأنه يعضها، وهي تنتفض، ويداها العاريتان البيضاوان تلتفان بذلك الجسد الأسود، كأنه المارد والليل، فتجري مذعورة وتبكي وتقول إن رجلاً يضرب أمها في غرفة النوم. .

وترى الرجل، الذي لا يزال عارياً، مجرجراً بالسلاسل، وسيخاً ملتهباً يوضع بين ساقيه، وهو يعوي من الألم، والأم توضع في مخزن قديم مع الهوام والفئران، لتكل يدها من ضرب جدرانه دون أن يفتح لها أحد، ودون أن ترتمي مرة أخرى في ذلك الصدر الواسع.

في تلك الأيام الغارقة في الأنين والصمت امتلأت الغرف بالأبواب، والنوافذ بالستائر، وغرقت المدينة البعيدة في النسيان، وتعبت اللغة من النمو في رأسها، ورأت دوماً ذلك الرجل يضرب أمها وهي تمسح على رأسه.

لا تبدو المدينة، من داخل السيارة السوداء الكبيرة ذات الستائر المعتمة، سوى شبح ذي خطوط وامضة، وسرعان ما تنفتح بوابة المدرسة وتأتي ضجة التلميذات كبركة منعشة من الأصوات والعيون.

لماذا هي وحيدة، كئيبة، منعزلة في ركن الساحة حيث يدور الريش والورق بفعل الريح الدائرية؟

لماذا ترجع إلى ذات الغرفة الصغيرة المطلة على الوادي الصامت، وشجره يبدو قبعات خضراء لرجال مختفين؟

في طرطشة الماء النقي المضيء الحلو على ثوبها، تتحسس أشياء غريبة تنمو داخلها، ثمة برعم يملأ الجلد والصدر حرارة خفية، خلايا، تتناغم دماً وإثارة. ليس ثمة مـرآة، والثوب الأبيض الشفـاف يلتصق باستدارات غريبة.

الماء يترنح على قمة شعرها الفاحم، ويندفع نحو جبينهـا وأنفها الصغيرة المستقيم ويقتحم الثوب ويشخب بين صدرها ويقرقر وينتفض متلوعاً وهو يسقط بين قدميها..

بين المرايا والرمانات الشاحبة تطفىء النهـار، وتمتد يـدها نحـو خزانة الجسد، تلقي أشياء بلا لون، وتختبىء عن الصراخ الضاج في الممرات للذكور القادمين من رحلة قنص أو من غداء فاخر.

يدق بعضهم الغرفة ليتأكد من وحدتها المطلقة. تفتح كتب العصافير والبرية والأغاني. تنصت إلى تأوهات صديقاتها، وتبصر صور الفتيان الحلوين بين صدورهن.

ثمـة شبح أسـود داخلها، عينـاه الحمـراوان مشتعلتـان بـالخمـر والجمر، وشفتاه الضخمتان تطبقان على وجهها، يعضها في عنقها حتى ينز الدم، تصرخ، تصرخ، لكن لا أحد يفتح الباب. أمها تأتي من ممرٍ فارغٍ، إلا من دخان مشبع بالأنين، تحضنها، تهدهدها، فتجد سائلاً رهيباً ينفجر بين فخذيها، تبكي. أيكون الوحش الأسود قد اغتصبها؟

ملفعات بالأسود، أغطية معتمة من الـرأس إلى القدمين، عيـون تومض من بعيد كأن الوميض قادم من آلاف السنين، أسودٌ قاتم، ذو حرارة وبخار، مشحونات في باص المدرسة، جامـدات في الفصل، وهي تندس بينهم وتذوي. المعلمة يدبجهـا الأسود الفـاحم، ويدهـا ترسم ثعابين وعفاريت تطلع من الحناجر والصدور.

تركض إلى الغرفة، أين أمها؟ تريد أن تذهب إليها. «خذوني إلى هناك! أريد أمي! أين أمي!؟». تدق الأبواب، تطلع الأشباحُ، الأمطارُ

المشبعة بالغبار والرمل والبكاء تخضُ غابةَ النخيل وتذروها في البرية القاحلة.

السكين توضع على رقبتها، وترى الرجل وهو يتلوى ألماً، والسيخ يبعث رائحة شوي ودخان.. أمها بعيدة، في المخزن كانت، ثم حملوها منفوشة الشعر، صامتة الوجه واليدين.

من لهذه الصقور الحائمة في الأعالي، المتجهمة في المجالس، المنقضة في البراري، غير جسدها الغض، نومها المثقل بالكوابيس، في قلعة تركض فيها من غرفة إلى غرفة ومن دهليز إلى دهليز، وحمحمة غريبة تنبعث من جدرانها ومن بخار حماماتها؟ من لهذه الشوارب الغليظة، والأصابع المصفّرة من الدخان، غير لحمها المنبوش بحثاً عن عفريت، أو عشق مبرح، أو داء غريب..

لم يبق منها غير هيكل عظمي يهتز من شعاع شمس، ويغوص في مستنقع الليل، ولغة الجنادب المنادية لهب كوني يحرقها، لتركض في ضباب مشتعل ويد غليظة تبحث عن عريها..

هناك تنادي وتبكي وتستنجد.

تضعها التقارير الطبية والكراريس المدرسية في عاصمة بعيدة غريبة. الغابات الصغيرة عرائش للحب بين الأبنية الجليلة. النهر سفن من النبيذ والأنس تخترق سلسلة الأقواس الحجرية النابتة وجوهاً وملامح حية. الشوارع تزرع الموسيقى والقبل والكتب واللوحات. وقاعات الدرس كالحدائق أزهار من الضحك والبحث.

لماذا هذه الرعشات تشتعل في بدنها وهي تحتضن المطر الناعم، وتتدفأ بالنار، وترى البشر خيوطاً من حرير؟

لماذا توهج خدها، وغزر شعرها، وأسودت عيناها وغدا رأسها أفروديت وهي تشعل الفحولة في الباردين؟ من هذه الآلهة الشرقية الباعثة ناراً وثلجاً في الخاملين؟

عيون كثيرة تتحجر ورؤوس تتدلى، لا تعرف أين الحنطة من لون البرتقال ومتى يشرق ضياء اللؤلؤ من دم الغزال؟

وجسدها ناء، يزحف في طين لزج من مادة حجرية مسمومة، يدع ثرثرات العيون تدور حوله حتى تتلاشى، ليعود الليل والصمت والرجل الأسود، وخطاها تندفع في ممرات لا متناهية، لتجد ذلك الفتى الهادىء النبيل في انتظارها، على لوح في نهر هائج، يعطيها أصابعه ومواعيده، ويتعلق فوق سور القلعة ويترنح، يمد لها حبلاً، وهي عارية بين السيوف، تتآكل كالأطياف.

بين ألوف الوجوه تراه. تنزوي في ركن مقهى، تندس في سيارة أجرة، تنعزل شهوراً طويلة، ترى يده تتحسسها، تتخلل أصابعه شعرها وحزنها. تصرخ فيه، تتجاهله، تمزق كلماته وأشعاره، تصعد إلى قمة البرج حيث الضباب البارد والثلج الذائب، تسمع صوته داخلها، فتحضنه برعماً في صدرها، ليطلع ضوء وينشق برق.

خائفة من شفتيه البريئتين، من يديه النظيفتين، وهو يحملها إلى شواطىء تضج بالألوان والصخور والأمواج، ربيع من الأجساد والسماء صحو والرمل سرير المتعة.

يدفنها داخله، تندس بين شقوقه، ترى قواقعه مزهرة بالعشب، وأسماكه الملونة تبتسم بوقار، وتشم عطر الموج وهو يتكسر على صخرتها، يفتتها، ويصير زبداً وزيتاً.

ملتحفان تحت النجوم، سائران تحت اسمال الغيوم، وقبو القلعة انفتح للوحات مليئة بالسكون وضجة الطبيعة، وسمعت شهيق أمها وعشيقها يدخلان برزخاً بين النهار والليل، وعنترة يقود الأبل في الرمال المتحركة، وجسدها المخبوء يزهو في ضوء الشمس ويرقص في صراخ الليل البهيج..

من أعطى هذه الغزالة الحنطية المشتعلة، هذا الفرح كله، وتركها

تسبح في فضاء اللذة والفكرة، وتتألق في المتاحف والبرك؟

في لحظات مباغتة تبرز الشوارب الغليظة كـالطائـرات المنقضة، تدوي في السماء وتومض خطوطها السريعة ودخانها الذيلي، وتصحو على هزات المواعين والهاون وهو يحـذر من ابتلاع الحـوتة للقمـر، واللفائف السوداء تلتف حول عنقها وكأن القلعة تهتز، وتتصدع، وترى بـرجاً يترنح في هاوية الوادي، فاتحاً فماً ملتهباً للقلعة يخرج منه الموتى والمعذبون في الطبقات السفلى والنسوة المذبوحات يحملن رؤوسهن بين أيديهن، والمقطوعو الأيدي يبحثون عن أيديهم..

يعودان إلى الوطن.

من هذه الفتاة الجميلة النضرة، الفراشة، القادمة من وراء البحر والنرجس، المصدومة بالحجر الواسع، ودهاليز قلعة دراكـولا الضيقة الملتفة كالحية، والرياش والأثاث الفخم الجديد الذي لم يخف بقع دماء أمها على الجدران؟

من الكون المفتوح إلى الغرفة المغلقة، إلى سعال الرجال المنبه بالقدوم، إلى الخوف من مصافحة الأنثى، إلى الليل المشنوق، والفجر المذبوح، والرمل المنتشر كالقيظ، والقيظ المستعر كالفيض، ولا شيء يوحي بالحياة سوى أسلاك تليفون تهتز بصوته الجميل وشاشة تليفزيون مختلة العقل.

تندس بين شجيرات الواحة الصغيرة في قلب الوادي. البئر التي كانت تضج بالماء جفت. وثمة طاولات تحت النخيل الوارف تعـطي إجازة صغيرة من عسف الشمس.

يجلس على طاولة أخرى، وهي تلتف بعالمها الحريـري الأسود التنور، وتتحدث إليه صمتاً.

يتقدم في المجلس العامر بالرجال، ثلاثون عقالاً ضخماً، ووجوه

هادئة صلدة، أنتفخت من الأرز والدهن، ونعست من الضجر.

يلبس بدلة أنيقة، وحذاؤه نسي أن يخلعه، وحيا الأب الرابض في صدر المجلس كالليث بعباءته الكحلية. جلس قربه وتناول فنجان القهوة، وفاتحه بحبه..

حدق فيه العجوز بنظرة صقر، وتركه يذوب في الليل والشكوك والظلال.

كانت الأيدي الصلبة تتوغل في عظامها، تنتزع ألق الشواطىء والعصافير، وتحطم مرايا العرس وأقواس قزح الفرح.

في ذلك الليل القاتم، الشاحب باحتمالات الشتاء، تنبثقُ من الحصى والباب العملاق والسيارات السوداء والعُقُل السوداء والعصي والصقور وقبل الأنوف والخوف، إلى الرجل المنتظر، المتسلق جدراناً وعظاماً، القابع عند البئر، وسيارته وحقائبه تنتظر رجفة أقدامها، كي تندفع إلى عوالم بعيدة.

عند البئر كانت سيارة باردة. وثمة رجل زائغ العينين، فاغر الفم، وحبل ثخين شده إلى الوراء بقوة وعنف.

في تلك القلعة البيضاء المتألقة بالمصابيح والأعلام، المشرفة على الوادي ذي البيوت الكثيفة الكثيفة والدكاكين الضاجة بصياح الأشرطة واللغات، بين ذلك الحصى المنتزع من الجبال الشقيقة، بين ممرات مضيئة وسجاجيد عميقة وأثاث باريسي ناعم؛ تجثم امرأة كأنها خط متعرج من العظام والجلد والذاكرة، ترى دوائر من الضوء والضجيج والأبر، وشواطىء بعيدة ذات قواقع جميلة، وضحكات المخلوقين شقيين يتقلبان في الرمل على جمر الحب.

لا تزال القلعة تضج بصرخات الرجال العائدين من البراري، وصيدهم من الطيور والغزلان ينزف في سيارات الجيب القوية.

هذا الجسد لي

حملني أبي فوق ركبته، وتطلع إلى وجهي وقال:

ـ «سوف نقطع الوسخ الزائد من هذا..».

وأمسك لحمة صغيرة بين الفخذين، وظل يلاعبها، وأنا أمس الحلوى اللذيذة مبتسماً، وأكمل.

ـ «سوف تقطع، ولن تحس بألم، وتصير رجلاً..».

لم أعهد هذا الحنو منه، وهذا الحلوى والدينار الموعود، والرحلة إلى السينما، وكنت أتحسس الوسخ الزائد مستغرباً من اتصاله الحميم بذاتي، أرتعشت يدي فجأة و... هربت!

في ذلك الدغل الوحشي من أرض مهجورة، شممت رائحة الأرض. ذكرتني بدواخل جسدي، بعرقي، وانحبست خائفاً بين حشائشها وجذوعها، وسمعت أصواتاً تصرخ بأسمي. احتميت وراء جذع نخلة. لكن يداً مرعبة رفعتني إلى السماء، وأطلت بوجهي.

رمقت أختي ثوبي الأبيض الشفاف، ضحكت. أمسكني الرجلان وأنا أصرخ وأبكي، وفتحا ساقي، وتكهربت أعضائي وتخشبت، وإذا الدم يفور، وشيء مني ينتزع ويُلقى بعيداً. والرجل الختان يضحك ويضع دواء وقطناً.

قال أبي كلاماً غريباً، لكنني لم أفهم. تعكزت على كتف أختي ومشيت في الحارة. فتح أولاد كثيرون ثوبي، وأدارت أختي وجهها بعيداً، وهم يكشفون ثيابهم ويتباهون ويضحكون.

لم أعد أحتاج إلى الثوب الأبيض، رحت أركض مع أختي على الشاطىء الرملي الطويل. نقفز فوق القوارب، نعبث بالشباك ونتقاذف القواقع والأسماك الميتة، ونتحدى الموجات المشاكسات للرمل ولأقدامنا.

ذات يوم لم تعد أختي من البيت، نما جسدها، وأنتفخت رمانتان في صدرها، وعلقت ملابس داخلية دامية فوق حبل الغسيل. أرتعبت. هل فعلت الفاحشة.. ونامت مع أحدهم! سوف أذبحها!

كانت متكورة داخل ملابس سوداء، وتتكلم من وراء قضبان النافذة وتضحك «سأتزوج!».

أركض وحيداً في البرية، أصطاد غيوماً، وأطير فوق بالونات تأخذني إلى الشمس. أحمل كلباً إلى البيت، يصرخ أبي «لا تدخله!». ويعوي الكلب ويهرب.

تنتابني حمى وأرى غيلاناً، ويدخل رجل ذو قرون صدري، وتنغرز لحيته الإبرية في جلدي. وكان هناك صوت مخيف يأتي من وراء الجبل؟ لا تتعرى في الحمام! أبعد نظرك عن لحمك.

وأسمع همس المدرس: ناكح يديه في النار! وأغفو في غرفة الفصل. تحملني دراجة إلى برتقالة الشمس، وأيقن أن الحمى والصداع أثم لأنني سرقت الكرة الصغيرة الملقاة في الشارع، فأعيدها، لكن المسام تنضح رماداً مشتعلاً، ويصرخ المدرس: ناكح يديه في النار! ويربت سلامة موسى على رأسي، ويمشي معي على الأفق.

كلما هربت إلى الأرض المهجورة والدغل الوحشي، شممت

رائحة غريبة، فأدخل يدي تحت ثوبي. كلما دخلت الحمام اغتسلت وعيني في السقف، أحسه مرتعشاً، الماء، يتدفق نظيفاً، طاهراً، قادماً من الجبال والله والغيوم. والحسرة التي تأكلني، والخوف من العيون الشامتة، والشياطين المحدقة إلى يدي وظهري، تلقي بي في دهاليز معتمة أكلم قطة مخنوقة الصوت.

ظلمة، ظلمة واسعة، غبة بحر مشتعل بالدبابيس والأباليس، وأنا أمشي فوق حبل دقيق، مهتز، أمسك هواء وفراغاً، أصابعي وعيني تلتصق بالحبل المرتعش، اهتز، لا تمسك قدمي الثعبان الهارب، وأهوي، طائرة ورقية مشتعلة، وطواطاً بلا حساسية، تلتصق بي النار!

جلدي ينتفخ بالبالونات الحمراء، وفقاقيعها تنفجر، عاراً وقاراً، وعظامي تصطك متشققة، يتفتت لحمي، لكنهم يعيدونه ثانية، ويضعون جلداً جديداً، لينتفخ بالحمرة ويصرخ منتفضاً بالدم..

كان عرس اختي بهيجاً، تلألأت السقوف بالمصابيح، وامتدت القدور في الحوش، مبقبقة بالأرز الزعفراني النكهة، واللحم المقطع الملتهب المفتت، وأحسهم يمضغونني في أفواههم، وهاذا الأرز الطيب أظافري وأصابعي، ويهزني أبي: لم لا تفرح؟

جاثم وراء كيس أرز ضخم، ورائحة الليمون الأسود اليابس، تهيجني، وليس ثمة سوى النساء يغنين ويهزن الدفوف، والرجال وراء الحائط، وثمة رجال غريبون يرقصون بين الجمع، أجسادهم لينة، وحركاتهم أنثوية فاقعة.

أخذني أحدهم إلى الظلام، حاذني بجسده. كانت رائحته منعشة. تحسست أصابعه فخذي. تنملت. اشتعلت. كانت رائحة الأرض الوحشية تتفاغم إلى دهاليزي، ترعشني، وكأن اليد القاسية التي أطبقت على فمي تلاشت، وتصاعدت اهتزازات راقصة في خلاياي.

ما هذا المطر الناعم المتغلغل في أعضائي؟ ما هذا الدبيب الأنيس المشتعل المرتعش، على نغمات الطبول، على صياح أختي المكتوم، وبكارتها تفتض راية دامية وزغاريد منتفضة، على رائحة الشواء اللذيذ؟

ثم لماذا انطفأ كل شيء، وأحسست بالخجل والعار؟ كانت الوجوه ترمقني، كانت ملابسي مرفوعة، وجلدي مضاء بآلاف المصابيح، ما هذا الدمع الذي يتصاعد شلالاً ولا يغسلني، أهربْ! أهربْ بعيداً! كل العيون تتطلع إلى عارك، والجمع كله يتهامس حولك! أركض إلى الأرض الوحشية، ثلة النخيل العجفاء الميتة تحرسني، وأفواه الحفر تبتلعني، تغطيني بالرمل والسعف والألم، وأنا شتاء افترسه صيف، وعواء مخيف..

البيوت الصغيرة الساكنة، والنساء المتغطيات بالأسود، والطرق الضيقة الشاحبة، والسماء المحترقة، والجنون الممطر، والدكاكين الصغيرة الفارغة إلا من الشيوخ وقناصي الأولاد، وغابة الأكواخ السعفية القريبة النائحة بالمزامير، والأرض السبخة الملتهبة بالأسربة، والعصافير التي تأكل يديك ولا تخاف.

تحولني إلى قطرة ماء متبخرة، مستفزة، أعضائي تموت في السأم، والكراسات لا تدفئني، وثوبي يكاد يطير من فوقي، وأنا أمشي مع هذه الثلة من الرجال الأقوياء، المتفجرين ضحكاً وغضباً، والمتعطشين للزجاجات الفائضة بالسائل المخدر المشعل، وعيونهم تسحق الورق، أو تهز الأوتار وتطلق الحمامات الأسيرة من الروح، والثياب..

وهذا الوجه القوي، الساخن، يحدق فيّ، أنا هنا الصبي العطشان للكلأ، والناقة البدوية تذبحني ولا أدفأ، وذراتي ماء غوري متأجج، هذا الليل سيعطيني نجوماً لم أحلم بها، وأنا وحدي معه..

من يحدق بي في هذا الليل، العسس أم الضمير أم الملل؟ خذني جمرة لا شيء يبللني. سأخترق هذا الزقاق الكئيب، والعشش

المضجرة بالكلاب والمستنقعات والبعوض، وأقفز إلى العسل المشتعل.

لكن لماذا أسقط من عل، كجلمود ليل مهشم؟ الأرض لا تحمل قدمي ولا ألمي، من رآني هل سيفضحني؟ سينسى الدفء والغلام الحنون المجنون؟

في النهار الفاضح، وفي الشمس المليئة بالاشاعات، علقني أبي من قدمي، وانهالت لسعات المسامير. أكلت العصافير نثار الخبز من عيني. صاحت أختي من وراء جدارها البعيد. لكن الدم النازف والشمس والأبالسة لم يجعلونني أفهم كلمات أبي. هاأنذا أعطي يدي لليل، والهمس، والحب، وأجري بعيداً عن مملكة الضجر، والعباءات الكثبان.

لم يفتح أبي لي الباب مرة أخرى. احتضنني الهجير ورأيت لعاب الكلاب يتبخر في الظلال المشتعلة.

انضممت إلى ثلة تسكن خرابة. تسكعنا، سكرنا، حششنا، سرقنا، نمنا، سجنا.

عندما قادتنا عربة السجن فوق الهضبة، رأينا مجموعة من الرجال الغلاظ يحدقون فينا بنهم. اندفع إليّ أحدهم وقادني بصرامة إلى زنزانته. جسد نحيف، عظمي، ذو وجه مليء بالأخاديد والثنيات الصلبة المتهدلة كجلد الزواحف. شرس في صراخه، وهياجه، وزحفه الليلي المفعم بالشهوة، يدب في الأرض السوداء المليئة بالروث، والبذور لا يهدأ طوال النهار، يفتح الماء بين القنوات، جسده العاري الأسمر، مخطط بالشمس والسياط والرصاص. يفترسني في الظلمة، ويقودني في الضوء إلى بستانه لأجمع الثمار، وأهرس العصافير، وأصرخ بالضوء والمدار، وأنهش الجذوع..

أضرب ضلوعه الصلدة، أبكي، يسحقني بشراسة. سلحفاة

ضخمة ثقيلة تجثم فوقي. أبر حادة تدخل جلدي. أعضه، لكن أياديه تعلقني على الجدار، وتخنقني في الفراش. أين النار والطبول والزمهرير اللذيذ؟

أغوص في التربة المنتعشة بالماء. أغرس البذور عميقاً. أحس بأيدي الأوراق والطين والسماد كأن الأشياء تتوحد في خميرة، كأن الأرض تنفرج، وها هو جسدي يكبر ويتألق، تعطره الشمس بفضتها، وشعري يزهو بغزل الريح.

سأسجد للطمي، للورق ينفجر بالزهر، والزهرة تبكر في القدوم المسائي حاملة كل روائح الليل والشهوات، وسأحنوا على هذه العضلات المجروحة المتوترة، وأختبىء وحيداً، منتعشاً، معداً للرجل السلحفاة سكيناً حادة تكفي لغيابه.

أي توتر مخيف، يحصدني وأنا أرقب وجوه النساء الورقية، والرجل يفتح الأستار ويجيء منتشياً بخمرته الثقيلة، ويبحث عني، قمامة تقتحم وجهي، والسكين انغرزت في فخذه واخطأت قلبه. .

في زنزانة رجل ذي لحية كثة، سمعت تراتيل سماوية عذبة، وفتح لي الرجل الهادىء، الهامس، نافذة كبيرة في قلبه، وهبت فراشات، وأحتسيت شراباً تغلغل في الروح، فصعدت إلى نجيمات ذهبية ومراع وأغنام وتربة محروثة تنفث شعراً، وكلمت آباراً وعذارى.

سأذهب إلى أبي، سأنحني تحت قدميه وأقبل دعواته، وأضم أختي إلى روحي، سأسجد لإلهه، سأحيل جسدي صخرة صلدة، تعض الأفاعي، وتغسل خرق الدراويش.

لماذا لم أستكن في المدارس، لأمشي خفيفاً على الخيط الرفيع، بين تصفيق الملائكة المشجعين، لأسقط في البستان ذي الكروم والحور والغلمان؟

الرجل ذو اللحية الكثة، يدفق الكأس في فمي، عيناه تنضحان ببريق غريب، والنجوم تنطفىء من شاشة السماء، تتكاثر وجوهه وأقنعته، يمتزج بي، ولا أراه، وأتحسس شعيراته السكاكين، كأنه يسافر بي إلى حصن مليء بالفئران والسحالي، نمشي تحت الأرض في ممرات مليئة بمياه المجاري، وهو يتأوه، ويعض جلدي، ولا أشعر إلا بموج كثيف كنمل، ودغدغة تهرش أمعائي.

وأصحو في النهار على ضجة النواطير، وألم البطن، وأسمع الرجل يتهجد، والحراس البدويون يأخذون تمائمهم منه، واللصوص والقتلة يتبركون بثيابه.

أغرس معولي في الصخر، أصرخ بوجه الشمس والبحر، أحيل عرقي انتفاضات وحكايات وأسفاراً، أقرأ الوجوه، وأفتش في لحية الرجل عن روائح الدغل الوحشي، وأعود إلى الليل والهينمة المبهمة وأجراس اللغة ودهاليز العواء القادم من الأرض السفلى، وأصابعه الغريبة تستحيل أبلا تتحسس صوتي وموتي.

تمتد يده بالكأس، أضحك، أدغدغ وجهه، يشرب، لا أشرب، نقهقه، يحيطني بذراعيه الضخمتين، وغابة سكاكينه الهامسة، فاجعله يتعرى ويمشي في الهواء أمام عيون الحراس والسجناء المذهولة!

يستدعيني الضابط الأبيض الجميل إلى منزله المرتفع المنتشي بالنخيل والظلال والمياه، يمد ساقيه الناعمتين المبللتين، داعياً إياي إلى تنشيفهما.

آخذ الفوطة المعطرة، واجمع لآلىء الماء الزاهية من بين شعيراته الرقيقة الخافتة. أصابعي ترتعش وعيناه تتسمران على أنفي. يضع يده تحت ذقني. أنهض بتصدع مريع.

يذهب إلى غرفة النوم ويدعوني. أظل متشبثاً بالباب، يأتي حانقاً، يصرخ:

«أنقل كل ذلك التل من السماد إلى الحديقة!».

العربة عتيقة، ذات عجلة واحدة مهترئة، أسنان الأحجار نهشتها، والممرات الحجرية المناوئة المفاجئة تصطك بها بعنف، وتنتزع السماد، ذا الرائحة المخدرة المهيجة، أسقط فوقها، نترنح نحو السفح. أصعد مرة أخرى، كتفاي ليستا لي، والصقر ذو الشعر الذهبي يحدق فيّ متشفياً، والكومة الكبيرة من بقايا الثيران، تقل وتنتقل إلى أرض عطشى للحب، وأيدي العاملين تسرع في حمل العربة، ورأسي ترتعش في مياه البركة. أرى جسدي مختلفاً. رجل آخر ينتزع الصبي من غفوته، ويرفعه فوق الأغصان والأشواك والجمر، يداه الناعستان ضاريتان، وصدره المفتوح المتورد يملأه فحم الشمس المشتعل.

لا يجثم عند السفح، يصعد الذروة الصخرية، يطعن السماد المهشم، ويحصر الصقر في قفصه البعيد، ويندفع إلى الأرض السمراء المورقة، قدماه تفجر الينابيع بين العبيد، وتوحد أغنياته الأجساد الأصفاد.

قادني الشرطي إلى المستشفى. عبر بي الردهات حتى حذفني عند سريرها. رأيت أطفالاً، لا أعرفهم، يبكون. أبي كان هناك لا يراني. رفعت القماش الأبيض، ورأيت جثتها. صارت أختي عوداً يابساً مشققاً. «كانت رغبتها أن تراك قبل أن تموت!».

في يدي جلود ضفادع وأحزان من الطين اليابس.

أقتحم زنزانة رفيق جديد. هو الآن رسام رقيق، يعلق لوحاته على الجدران ويصفق من البرد. يجلس على سريري محدقاً فيّ، يقول: «جسدك جميل، أريد أن أرسمه». يتحسس يدي، فأدفعه بعيداً. وأنام على صوت شجرة تموت.

في السماء المفتوحة على الأخضر اشتريت تذكرة وذاكرة وسافرت.

شويت سمكة على الشاطىء ودفنت نفسي في الرمل. تـأملت الأجساد البضة الحرة ونهضت مفزوعاً!

صحـوت. كان الـرسام يتحـدث مع نفسـه ويده تحت اللحـاف مهتاجة، كان موظفاً مختلساً يسرق الأغنياء والآن جلد نازف يمد قنواته للجدار والقطط. مسحت على رأسه.

كان الضابط في البركة يسبـح، فوق رؤوس الأشجـار المرتعشـة والشمس الوديعة. يخرج وجسده متألق بالهواء والضوء. أنشفهُ وألبسه ثيابه.

يقول:

ـ «هل تريد حفر الأرض الآن؟»

انـدفع لحمـل الحطب، وتجفيف المستنقـع ومـطاردة البعـوض المنغرز في الدم. لم أعد سوى هيكل عظمي كبير، رجل ذو لحية كثة، وأسمال من بقايـا الرجـال المغـادرين. أتحسس جلدي المضيء فـأجد يـراقات تـطير وبنفسجـاً مشتعلاً.. أمشي على حفـوف التلال وأرفـع المعول، والبشر تحتي كـالنمل، ولا أسقط، جلدي حصى وصمت، وذئب يعوي كل ليلة، وروحي شبح مشرف على الهلاك.

الآن تفتح البوابة، تعطيني الدروب نهودها. أصرخ، أصرخ، وأنا ألتف حول جسدي، حر، حرا!

أنا وأمي

ساعد أمي البض يتلألأ في المقعد الأمامي، وشعرها الكث الأسود، ووجهها المتورد، لوحتي الجميلة الحبيبة.

أتعلق بها وأنا في المقعد الخلفي، أقبل زندها المضيء، فتدفعني صائحة، غاضبة. أحشر أختي في زاوية المقعد لتصرخ هي بدورها. فتتطلع إليّ أمي من المرآة الأمامية الصغيرة، لتبدو عيناها الواسعتان المكحولتان تتأججان بالجمال والغضب «ألا تكف يا عفريت؟».

حين تقف السيارة أمام المتجر، وتنزل أمي جارة عباءتها بيدها، لتضعها بسرعة على كتفها، تتدلى رؤوس الرجال من فوق اكتافهم، وتطلع ألسنتهم من حلوقهم، ويدرك بعضهم حاجته إلى السلع، ويحدق بعضهم إلى الزجاج..

يصيبني الهم والغم، أرفع يدي في وجوههم، أغمغم بشتائم عنيفة تهدر داخلي وتتحطم على الزجاج وفي الهواء.

أفتح الباب، وأركض إليها، أتعلق بساقها، أو أحمل كيساً يحني قامتي، أتطلع إلى الرجال حانقاً، لكنها لا تلتفت إلى أحد تجمع البضائع وقطع النقد الصغيرة والصمت.

* * *

هذه هي روحي تخرج مني وأنا أرى سهراتهم الغريبة. هل يمكن أن يكون هذا أبي.

صالة واسعة، وطاولة كبيرة فوقها أطباق مفعمة بالروائح الخلابة المثيرة، وزجاجات ملونات غريبة، تتدفق منها سوائل مزعجة قاتلة في الكؤوس، وأبي يقدمها إلى أمي وضيفه، الذي يضع يده على كتف أمي ويقهقه، ويقبل خدها، وأبي يثرثر معه على الكرسي المقابل، بدلاً من أن يحطم رأسه الكبيرة الصلعاء المشوهة، بقعر الزجاجة!

ثم يتثاءب أبي، ويغمغم بشيء ما، وينسحب من القاعة متوجهاً إلى غرفة نومه. أتزلزل في موقعي خلف باب غرفتي، أود أن أصرخ، والرجل الأصلع دفن رأسه في صدر أمي، وهي ألقت بنفسها على الكرسي، دون أن تتفوه بكلمة!

توقظني من الصباح الباكر، تدغدغ صدري بأصابعها، وأشم روائح غريبة مثيرة، لكن وجهها لم أعد أراه. تحاول أن تجذب عيني بدون جدوى. تريد أن توصلني إلى المدرسة، لكن قدمي الرقيقتين، وساقي العودين، تحملني إلى المبنى المليء بالأولاد الساخرين مني.

أتجمد في ركني، أصمت طوال الوقت، والسبورة شاشة ليل كئيب تضيء فيها زجاجات وألوان ورؤوس باروكية وهدايا من الخواتم الذهب والمزهريات الرقيقة الشفافة.

* * *

امتلىء بالعرق والبخار الساخن، أمسك سريري بأظافري، ثمة أطياف من النار تتراقص حولي. جسدي يدغدغه ثعبان كبير، وأنا أركض في العتمة والضباب والعواء، أعبر مستنقعات من جمر وضفادع وفحيح رجال.

أتقلب على الفراش، أود أن أعبر تلك الظهيرة المشتعلة، أن

أتخلص من جسمي، وأذوب، أقفز هذا البيت، وصراخ الرجال في القاعة، وضحكات أمي التي تفتق ضلوعي، أصير فراشة في حقل، أو ناسك في كهف، أموت، أتحول إلى ظلام أبدي، أرفرف نحو السماء ملاكاً.

الحرارة تزداد، جسدي يهرب مني، الفراش كله ماء، أصرخ، أصرخ بأعلى صوتي، والغرفة المظلمة تفتح على نور، وجسد من ياسمين وثلج، تضمني إلى صدرها، تلتقط تلك الجمرات من كبدي، تتوغل أصابعها الباردة المنعشة في قلبي. لو أننا نرحل بعيداً!

أي غابة من فل وظلمات تغطيني؟ البيت يسترجع عروقه من الزجاجات المنتفخة بالصرخات والشهوات، وجسدي يستوقف أمي عن الغابة القاعة.

لا تزال الأشباح الصفراء تطاردني، والعرق الغزير خيوط من اللذة الغريبة، والحمى صديقة لطيفة في جلدي، لكن أمي تغادرني إلى نداء أبي، والبيت كله مظلم، وثمة رجل يضحك ويشعل الجدران.

* * *

غادرنا أبي فجأة، قبلنا أنا وأختي على عتبة الباب، وتطلع إلينا بعمق وغرابة، وهمس «وداعاً!». ركضت نحو السيارة، ضربت بابه بقبضتي، ولكنه غاب وذاب.

جاء رجال غرباء، وفتحوا أوراقاً رنحّت أمي على الأرض. كنت أرى سريري وألعابي تشحن في سيارة كبيرة. لم يتزحزح الرجال عن فك أصابعي عن الأشياء. صراخي عند الثلاجة، لم يحدث أثراً.

كان البيت فارغاً، ثم سارت بنا أمي خارجة أيضاً، لنقبع في غرفة كبيرة موحشة، كان سقفها يهتز من الهواء، وينتفخ بالمطر، لنضع أوان تلاحق قطراته العجلى المجنونة.

الجـوع يقطّع دواخلنـا، وأرجلنا تضـطرب فوق درجـات العمارة الملتفـة، وبين أكوام القـذارة والأطفال الصـارخين وأحذيـة الأجـانب الكثيفة.

تنتزع أمي ثيابـاً جميلة، تزيـح طبقات الصمت والحـزن، تفجر وجهها بأقواس من الضياء والربيع، ويبدو جسدها الملتف بعباءة سوداء زاهية، كصفعة للعمارة الكئيبة.

الحليب الذي تجلبه لا أتذوقه، السيارة الرائعـة التي تقف تحت الشقق الرثة، لا أدخلها، جسدي يذوي، وهي تضع اللقمات بقوة في فمي، ألبس الثياب المرقعة وأهرب من بدلاتها الملونة، أتحمل هزء التـلاميذ وأغـوص في الحروف، أقـرأ القرآن وأبكي، أدخـل داخلي وأرحل، لا شيء في روحي، سوى أوجه مكفهرة وجداول من وحل، محنط فـوق الثياب والقمـامة والأحـذية الكثيـرة. سأهـرب من هنـا، سأتركها، بل أنتزع أختي، وأجري بها نحو مدينة أخرى، سأعمـل، سأكنس الشوارع، سأغسل الملابس والصحون..

أترنح فوق الأرض، يبللني عرق كثيف، أتحشرج باحثاً عن نفثة هواء، يحيطني غرباء العمارة ويحجزون الضوء والمَلاك.

* * *

هذا بيتها الجديد الشامخ الآن، ڤيللا وأشجار وأثاث ناعم، وقاعة فسيحة، وليال مليئة بالعـطر والهمسات وقـرع الكؤوس. وثمة رجـال متأنقون، هادئون، يثـرثرون بنعـومة في أول المسـاء، يتداخلون مـع النساء، يتراقصون كالثعابين الملتفة، يحمحمون، يطلقـون صرخـات الزجاجات وزبدها الطائش، يزيحون المعاطف وأربطة العنق والعقل، يتـداخلون، يصرخـون، تهتـز الأرض بقـرقعـات أحـذيتهم، وتنـطلق الموسيقى حيات من صناديقها المعتمة، وتهدأ الأضواء، لنسمع تأوهات في الحديقة، وأقداماً راكضة نحو السيارات أو الأشجار، وأحياناً تنفجر

خدود من صفعات حانقة، ويتعرى المنزل من ملابسه وأقنعته، وكأنه دغل يضج بالنداءات الوحشية.

أنا وأختي ننعزل في شق بعيد من المنزل، نمعن في صلواتنا الهادئة، أنزل رأسها عن النافذة الفاضحة، وأسد أذنيها عن الموسيقى الصاعقة، لكن الجدران تتزلزل، وكأن الجمع الغفير اللاهي يمد شوكاته في حلوقنا، ينتزع الأبواب ويرقص عارياً أمامنا، أنهض حانقاً، غاضباً، وانفجر في القاعة الرقيقة الأضواء، كأنني أحطم حاجزاً من الزجاج الشفاف.

يتطلعون إليّ بذعر ينقلب إلى ضحك. يتطلعون إلى ثوبي القصير، ولحيتي الكثة، ويزعقون:

ـ ماذا يفعل هذا الغوريلا هنا؟

لا أستطيع أن أزحزح واحداً من مقعده، أو أحطم زجاجة، فعيونها الشرسة تحيطني بزنار من نار، لكنني في هذه الليلة، اندفعت بقوة نحو الطاولة المثقلة بالزجاجات والكؤوس والشهوات، وأزحتها عن الأفق. كانت تصطك مع بعضها البعض، وتتأوه، ثم جاءت فرقعتها المشتركة المدوية كأصنام تتحطم معاً.

* * *

أختي ورائي وليس لنا سوى كومة صغيرة من الملابس. نداءات أمي المنفجرة لم توقفنا عن التوغل في الليل المبهم البهيمي، لكن كانت النجوم تزفنا إلى فجر أبيض وإلى مأذنة يصّل صوتها إلى السماء.

غرفة أخرى صغيرة ولا ثلاجة أو هواء، ظلمة خانقة، وجدران كالحة، وقيظ يفتت الحصى ويجعل المروحة تئن، ولكن الدرب أنفتح لضياء عميق، كأنه ملائكة يهبطون من الأعالي، وينثرون أزهاراً من ثلج ومحبة.

كانت أمي تخنقني في أحلامي، تضع وسادة من مسامير وخفافيش على وجهي، وتسحب أختي من يدي، أصرخ، أرفسها، أطعنها بسكين المطبخ، لكن النصل لا يتغلغل في صدرها، واسمعها تقهقه. أرى أختي تفر إلى ساحتها المضاءة بالمصابيح والرجال البيض الملونين وبالزجاجات التي صارت بالونات ضخمة، تسبح أختي في مائها الواسع، ليغدو جثثاً طافحة وأيدٍ، وأنهض زاعقاً، لأجد أختي نائمة قربي.

أبحث في متاعها، أجد «روجاً» كانت تخفيه في قعر الحقيبة. أوقظها، تُذعر، أصبغ وجهها بالروج، وكأني أحفر بالدم، كأني أكتب بالنصل غير المثلوم.

كانت تبكي وتصيح:

- أرحمني يا أخي!

سددت النوافذ بقطع سميكة من الخشب، أغلقت عليها الغرفة، جثمت في الخارج خائفاً أن تستطيع التسلل، بشكل ما، من المكان.

مشيت في الأزقة بحثاً عن رجل ما يتزوجها. لم يرضى أحدٌ بها.

أنحنيت على يد الشيخ أقبلها وأبكي. كان المسجد خالياً من المصلين. راح الشيخ العجوز يربت على رأسي، ويتساءل:

- لماذا تعذب نفسك يا ولدي؟

- أمي.. أمي.. يا سيدي.. عارها يلاحقني في كل مكان. لم أعد أنام. لم أعد آكل، وأختي قد تصير مثلها.. حينئذ سأقتلها وأقتل نفسي.. أرحني أيها الشيخ!

- كف عن تعذيب نفسك وأمرح في الحياة!

أتطلع إليه مذهولاً. ألم يكن ضيفاً ذات مساء عند أمي؟! لماذا

يمتلىء وجهه بزيت مضيء، وترتجف عروقه بسعادة مريبة؟ ألا يعيش في بيت كبير، ويحب الغناء، ويثرثر في المقاهي؟

أركض مفزوعاً إلى أختي. قد تكون هربت، أو ساعدها رجل ما في اقتلاع خشب النافذة واختفت معه في منزله. أجري، أنفض المارة من دربي المفزوع، المترب، وأجد الحجرة مغلقة، ورائحتها عطنة لم تُفتح.

وجه أختي أصفر، مثلث العظام، وخيطها المربوط بالسرير لم يقطع. أفكها وأضاحكها، وأضع أمامها الأكل. لكنها لا تأكل. تتطلع إليّ من كهفين بعيدين. تهمس:

- أريد أن أرى أمي!

أُفاجىء، أُذعر:

- ماذا؟ تريدين أن تكوني معها، تصيرين مثلها؟!

أرفسها بقوة فتتدحرج إلى الحائط. أصفعها. فأرى خيطاً من الدم يتوهج على جبينها. أضمها إلى قلبي. أبكي.

- أصفحي عني، أرجوك!

* * *

لا بد كي أنهي أحلامي المخيفة، وأنام، وآكل، وأضم أختي بحنان، أن أفعل شيئاً ما، لتلك المرأة.

أدور حول فيللتها الكبيرة المضيئة، ولم تزل قعقعات الزجاجات والأغاني والقبل تدوي في الفضاء الرحب الفارغ الصامت. السيارات الفارهة تحيط بالمنزل كالذباب يقبع حول جثة نتنة.

صفيحة الكيروسين التي أحملها قد تنقذني من كل شيء، تندلع النار فجأة، وتبقبق في السيارات، وتندفع إلى الأشجار والجدران

والأثاث، ويندفع الجمع اللاهي، أجساده مشوية بنار مخيفة، والنساء تحترق رؤوسهن كتعاويذ السحرة.

لكنني أجبن عن اشعال الفتيل. أسمع كأن أمي تناديني وأنا طفل، تدعوني إلى المائدة تركض في الظهيرة إليّ، وعباءتها تشتعل بالشمس.

يدي تهتز، وأمشي حانقاً من خوفي، أنفجر، لا بد أن أزيح هذه المرأة من عالمي!

صفيحة الكيروسين تمتلىء بالحياة والنار في دكان خمور. زجاجاته تقرقع وأخشابه تنفجر قاذفة عفاريت وصيحات مجنونة. وأنا أقف سعيداً مذهولاً، وقبضة شرطي تقتحم فرحي فجأة!

* * *

خرجت من السجن النتن، كومة من الحشرات وتنكات البول والضربات. كانت أمي هي التي ذهبت لأحد أصدقائها الضباط ليفرج عني. صرختُ، لا أريد أن أخرج بسببها! فقذفوني في الشارع.

لم تكن أختي في الغرفة. هربت! رحت أدق رأسي في الجدار. السلسلة مكسورة، والكتب ممزقة، وكلمات بذيئة مكتوبة على الحيطان.

هناك أنا مسجى، بركة من العزق، والشعر الغزير، والأصوات الغريبة التي تناديني، وأمي التي تزورني وتضع أطباق الأكل الذي لا أمسه وأسلمه للقطط. تقبلني، فأصيح: أخرجي من هنا!

أدخل المسجد. الشيخ العجوز، كتلة الشحم والشخير، توفي، وجاء ابنه مكانه. شاب صلد، متفجر الروح، صارخ، ناري على المنبر.

كانت عيناي تترقرقان بالدموع فرحاً وحباً.

جئت إليه:

ـ أنا تعب يا سيدي . . أمي عاري الذي أحمله في كل مكان . .

أفضت بكل شيء قال:

ـ أتريد أن أعلمك واجبك؟ لماذا أنت جبان رعديد هكذا؟ كتلة من الخرق والذعر والقذارة؟

ألا تجد حجارة وحصى في كل مكان؟ لعل أختك الآن تواصل رحلة الأم الذابلة!

كلمات الشيخ قتلتني. لم أعد أنام الآن. صرخت في نفسي: جبان! أشتريت سكيناً حادة. نصلها يتوغل في الخشب. ذهبت إلى منزلها. سأغرز السكين بحدة في بطنها. وإذا وجدت الأخرى هناك سوف ألاحقها وأطعنها أيضاً. لن أتركهما حيتين أبداً. انتهت حياتي، سأودع كل شيء.

الشارع الضاج بالأضواء والألوان والفساتين لا يغريني . السماء الزرقاء العميقة تعبر فيها الطائرات كنقاط من اللؤلؤ الزائف.

ها هو البيت أمامي. سافجئهما وأطعنهما بلا خوف.

لكن البيت لم يعد لها. ثمة رجل آخر خدعها وسرقها وهجرها. أين هي الآن؟ عليّ أن أفتش عنها في كل مكان.

مضت سنوات وأنا أتعثر بالأشياء. أقلقل براميل القمامة والقطط والأبواب. أفتش وجوه الفنادق والخمارات. سأعثر عليها، أهتف: وأطعنها! ولا أجد سوى أشباح رثة.

* * *

ألتفت بذعر. ها هي هناك! غرفة حقيرة في بيت شائه، من هذه العجوز، الحطام، الهيكل الخشبي، ذات الشعر الثلج، التي تمسك صحناً خائفاً . ليست أمي! تلك غزالة جميلة، نفثة ضوء وعطر، من

هذه؟ أين السكين؟ صدأت منذ سنين.

تطالعني أمي من تحت أهدابها المحترقة. أمسك يدها العود. أين ذهب ذلك الماء الرقراق والعشب الأخضر؟

يتقارب رأسانا المهزومان. تختفي في صدري.

الرمل والحجر

كانت ثمة كتلة شاحبة تواجه عاصفة التراب. رأى مظفر شبحاً غريباً ماتت صرخاته في ضجة الصحراء الثائرة. كان يحمل شيئاً ثميناً، احتضنه وموجات التراب تدفنه.

غاصت قدما مظفر في الرمل، وخبأ رأسه عن رماح الغبار النافذة. تحسس الرجل فإذا وجه أبيض عجوز متغضن. امتدت يده إلى كيسه فاصطدمت بحجر قاس.

بم أتتك هدايا العاصفة؟ أهذه هي وعود الليالي البخيلة؟ عجوز تبحث يده المعروقة، كجلد الضب الطاعن، عن نظارة صغيرة، ذات اطار معدني رخيص؟ وكيسه الثمين ليس سوى حجر كبير، يحمله بحب الأم حتى لو نسي ساقه. ورائحته عشب وماعز وطين محروق وغيمة ضالة. هادىء، رقيق، يأملٍ بالحياة المهددة. أهذا هو ما تعدك به أحلام الضهائر القوائط المُشعلة بالشهب؟

«أود أن أدفنك هنا بدلاً من أن تموت بجوعي».

يحمل العجوز وحجره وغباره وأعشابه وأنين ماعزه الخفي، ويضعه طفلاً في عمق الخباء، على الحصير.

يحكم الخباء وأصابع الريح المشاكسة تعض كل شيء، وتولول

نائحة جائعة إلى كسرة خبز وقطرة دم. الكون كله مضرج بعروق مثخنة، كأنه ذبيحة أو ماعز نافق تلتهمه الضواري. نهار مسّود وليـل محترق، والرمل قوافل تغرق في العدم.

صحى العجوز، أنتبه، تطلع إليه مذهولاً، مرعوبـاً، تحسست يده كيسه والأداة الزجاجية الصغيـرة التي تعطيـه حقيقة الـوجود. أستعـاد المسيرة المريرة بين حشود التلال المتحركـة، وموج التـراب الطاغي المندفع كالحيتان، والسيارة التي ترنحت وانقلبت ثم تاه كل شيء، إلا من رمل كثيف وصل إلى صدره، وخروجـه النازف من قبـر التراب، وبحثه عن صوت أو ضوء ولا جدوى.. ثم هنـا الآن، وهذا الـرجل البـدوي القوي، ونـظراته الشـرسة المتغلغلة، وأصـابعه التي تتلمس الحجر، وتفتش ورق الكتاب، وتتحسس الكيس فـلا تجـد ذهبـاً أو مالاً.. لتتفجر عروقها بالألـم والغضب..

ـ ماذا تحمل؟ أتمسك هذا الحجر كالبخيل... أريد مالاً! ماذا لديك؟

ـ لاشيء، لا شيء!

لم يكن سوى حجر كبير وكتاب رث. أتعـوى في كل الليـالي، وتحدق بالدروب، وتشم روائح القوافل والمهربين والضائعين، لتصطاد كلباً هرماً مجنوناً؟ وعليك أت تحمله وتسقيه ماءً، وربما أن تجد لـه أكلاً، وأنت تقتات بالعشب والطرائد وبمخازن الحبوب النائمة في الليل ومزابل المدينة؟

ـ لماذا تحتضن هذا الحجر؟ ماذا به؟

ـ لا شيء.

ثقيل وكأنه ضلع جبل، صلد محفور الوجه: ثمة باب ووجه هائل لرجل تحته الحيات والسهام والصقور والأثداء.

ـ ماذا يساوي هذا؟

ـ إنه . . إنه حجر.

ـ وهل تبيعه؟

ـ كلا .

ـ ماذا تفعل به؟

رأى العجوز يضطرب، عيناه الحزينتان تعترفان بالإثم.

ـ إنني عالم آثار. . بحثت مع زملائي طويلاً عن مدينة غارقة تحت الرمال هنا. أشتعلت الشموس فوق رؤوسنا. حفرنا أنفاقاً طويلة. هرب الحراس والزملاء وبقيت الرمال المحترقة وحدها فاتحة أفواهها. اليوم قبل هذه الريح العنيفة سمعت فأسي شيئاً صلباً. . رحت أحفر وألقي التراب، تغير لون السماء، وجاءت ولولة الريح الأولى. . رفعت شيئاً، لم يكن حجراً، كان مفتاحاً لمدينة هائلة. تحت هذا الرمل البشع المخيف ترقد مدينة ببيوتها وأمواتها ودكاكينها وأساطيرها. . هذا مفتاح، مفتاح كأنه الذهب! انتم تمشون فوق بحر من الأشياء والأحياء!.

حاول أن يرفع الحجر ولم يستطع. ترنح رأسه على صدره، وراح يلهث وأصابعه تضغط على الحصير بألم، وكأن عروقه تريد أن تقفز من الجسد.

صاح مظفر:

ـ إذن هذا يساوي الكثير!

ـ أيها الرجل الطيب. . أنت انقذتني. . ستحصل على مكافأة كبيرة. بعد أن تهدأ العاصفة خذني إلى المدينة. هناك. .

قاطعه بحدة:

ـ لا أيها الرجل الغريب، سآخذ هذا الحجر وأبيعه. سأكسب

ثروة، أعرف تجاراً في أزقة المدينة الخلفية يشترون كل شيء، الخمر والنساء، والكتب والآثار.

حاول الغريب أن ينهض ويمسك مظفراً من يده، لكنه لم يقدر، رقد وأنّ. بحث عن شيء على رقبته. فك سلسلة ذهبية ناعمة، تدلى في آخرها صليب.

ـ خذ وبع هذا، لكن دع الحجر!

انتزع السلسلة وما ترك الحصى.

يتكلم ببطء ووهن:

ـ منذ أكثر من عشرين سنة وأنا أتصفح الكتب القديمة والخرائط، وأتجول بين الصحاري والواحات فوق حمار واهن. حفرت وسقطت وتهت وصرخت من الحمى والهم ورقدت في كوخ أهرش جسمي من الفقاقيع الحمراء وانفجارات اليأس. حتى عثرت على خيط أول في تل شاحب. ركضت إلى الموانىء والبواخر، وصرخت في قاعات باردة وأمام وجوه صلدة، حتى جئنا هنا، بأدواتنا وخيامنا وعذابنا. . كانت هذه المدينة حلمي، وكنت قبل يوم واحد قد عزمت على الرحيل والموت.

نهض قليلاً، وقرّب رأسه، وضغط على يده:

ـ لو كنت تعرف كم تألمت! منذ ذلك الزمن البعيد عندما جئت وزوجتي إلى هذه المدينة، التي لم تكن سوى أكواخ وزرائب، رمقنا الناس بغضب، وصرخوا في وجوهنا. تحملنا ونحن نزحف على الرمال، ومرضت امرأتي وحملتها تحت النسور الجائعة والحيات الطائرة. كانت ترقص في الثلج وتضحك كالزهرة. حملتُها تابوتاً إلى وطني. غرستها في تربتي وأنا أصرخ: لن أرجع ثانية، لن أرجع ثانية! وها أنذا أمسك تراباً هارباً وقنافذ دامية.

استرخى مظفر. جاءته صرخات الريح ونشيجها، وكأنها تأكل

أطفالاً. اندفعت داخله أنهارٌ من الحمم، ورأى الصحراء لا تطفئها، والثلج الكثيف يتوقد قربها ويصير بنادق وأسلاكاً.

تركت يده الحجر. بدا العجوز قربه كصديق عتيق طالما رآه في «جيبه» المندفع، وغليونه دخان قطار صغير، وفوقه مظلة عامل أفريقي، وعيونه تحدِّس التلال، ورأى بريقها في الحارات المعتمة، وهو يقف في الشرفة مع عدوه، المتجمِّد على كرسيه، المحدِّق في الجمع الغفير تحته، ببرود.

تطلع اليه فجأة، وكأنه يراه لأول مرة، يدخل في أفق عينه الفسيحة، كالتاريخ الغامض للمدن المدفونة، كالبواخر العملاقة المحمّلة بالقمح والهياكل العظمية وذكريات الرمال، يقول بصوت بدا مغايراً:

ـ أيها الرجل.. إن آلامك لا تساوي شيئاً قرب آلامي. إنك تذهب هناك في المدينة وتحتفل تحت الشموع ونافورات النبيذ، أما أنا فلم أنزل إليها إلا كشبح، أو كذئب يغتصب زريبة، أعوي هنا في الفيافي، أبحث عن عشب ضل من المطر والغنم، أمضغ التراب البارد وأنام مع أعجاز النخل الخاوية. كان لي أخ هناك أحب جارية للأمير فقتلوه، أصطدم رأسي بقلاع صلدة، بأحزمة الرصاص القاسية. ثرتُ وقتلتُ وعذبتُ حتى صرت شبحهم المرعب. مضت السنون وأنا تحت الظلام والصمت، آلفتني الذئاب والضباع حتى تركت صغارها عندي. صرت جزءاً من الرمل والغيبوبة والضهائر النارية والتلال المتحركة القاتلة. احتضرت أمي ولم أستطع أن أراها. رأيت جنازتها من بعيد. وطبخوا زوجتي في قِدر الجواري. أنظر إليّ كيف شبتُ في بضع سنين؟ كل رفة طير تقلقني، كل ظل يحرقني. كانت المدينة بضعة أكواخ وبيوت، وبحر أزرق عميق وواسع، وبضعة بساتين تصنع الطيور والتمر، والآن عمارات من الأسياخ على مدى النظر، واغترب البحر وأسّود، ولا تزال

صورتي في المخافر شاباً، ذا عينين حالمتين. لا ليست الليالي التي عشناها متشابهة.

جثم مظفر والخباء ينتفضٍ حوله. كأن الزوبعة أيدي الأعداء المنقضة في الأزقة، وصرخاتُ الأبواب المقلوعة، والأنينُ العميق النازف تحت الأرض. وولولةُ الريح أمهاتُ القتلى يندبن بصدورهن المشرعة، لكن لا دموع سوى رمل يدخل العيون من خلايا الأشياء.

ـ إن كل حفنة قمح، وقطعة نقد، تجعلني أتجذر في هذه الصحراء، أغدو شبحاً يتوغل إلى أسرتهم وكوابيسهم. ليس ثمة في هذا المدى الأصفر المجنون سوى أن تكون قاتلاً أو مقتولاً. لا تجثم الحمامات في أيدينا، ولا تخضّر الأحلام في مآقينا. سوف آخذ هذا الحجر!

ارتخى العجوز وغفى، رأى زوجته تطفو فوق براميل النبيذ المبقورة، وهو يتوغل في أدغال الأرض السفلى، يحمل أفعى ويترنم بأنشودة سومرية. ضحكات البدو والشياطين تحرق عينيه. يسمع الأرض تفح، والأبار تشتعل، وحين صحا فزعاً ما وجد البدوي ولا الحجر ولا الخيمة.

رأى الرمال صامتة، ولا تزال عروق دامية في روح السماء الساكنة.

فهرس المحتويات

السفر ٥
سهرة ١١
قبضة تراب ٢١
الطوفان ٢٧
الأضواء ٤١
ليلة رأس السنة ٤٧
خميس ٥١
هذا الجسد لك ٥٧
هذا الجسد لي ٦٥
أنا وأمي ٧٥
الرمل والحجر ٨٥

١ ـ لحن الشتاء، دار الغد، ١٩٧٥
٢ ـ اللآلىء، دار الفاربي، ١٩٨١
٣ ـ الرمل والياسمين، إتحاد الكتاب العرب، ١٩٨٢
٤ ـ القرصان والمدينة، دار الفارابي، ١٩٨٢
٥ ـ الهيرات، دار الفارابي، ١٩٨٣
٦ ـ يوم قائظ، دار الفارابي، ١٩٨٤
٧ ـ أغنية الماء والنار، إتحاد الكتاب العرب، ١٩٨٩
٨ ـ إمرأة، إتحاد الكتاب العرب، ١٩٩١
٩ ـ الضباب، دار الحوار، ١٩٩٢
١٠ ـ نشيد البحر، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٤



كان المطعم على سطح الفندق الضخم. تعريشة من الضوء والخيام والطاولات الكثيرة الأنيقة المزدحمة بالأكل والأواني الغريبة والزجاجات والكؤوس البراقة. وكانت رائحة الشواء تسيل لعاب النجوم الصغيرة المزروعة بكثرة في مظلة السماء كالفقراء المحتشدين في الظلام، كالأيدي الممدودة في السوق والحارات والزحام!

قدموا لهما قائمة الطعام فلم يفهم شيئاً ولكنه وضع اصبعه على خط منها وهو يبتسم. التفت إلى المدينة فرأى لؤلؤاً منثوراً وأضواء ملونة. اشتعلت البنايات والشوارع، وجاءت نغمة الليل خافتة مفعمة بالندى كقطة ناعمة الملمس.

توزيع المركز الثقافي العربي
بيروت (الحمراء) ص. ب. 113/5158
الدار البيضاء (الأحباس) ص. ب 4006